قبس من المنهج النبوي في تهذيب الصحابة وكيفية استفادة الدعاة من ذلك

د/ حسين حامد عمر الديب
مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية
كلية أصول الدين -- القاهرة

المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله

أما بعد:

فإنّ الله تعالي اطلع علي قلوب عباده فاختار قلب محمد– صلي الله عليه وسلم– ليكون خاتم رسله إلي العالمين جميعاً ، وأنزل عليه كتاباً مباركاً منهجاً ودستوراً ، ونوراً مبيناً ، فاستمسك به ودعا إليه ، ليخرج به الناس من الظلمات إلي النور بإذن ربهم.

وقد اختار الله لنبيه أصحاباً يأتمرون بأمره ، وينهجون نهجه ، فعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فكانوا في الخير قادة ..تُقتفي آثارهم ، ويُقتدي بفعالهم . وقد أفاض عليهم – صلي الله عليه وسلم– من علمه ، وهذبهم وأدبهم بأدبه ، ليكونوا أهلاً لحمل أمانة الدين إلي العالمين.

وقد اختارهم الله علي علمه ، واختصهم دون غيرهم بصحبة نبيه– صلي الله عليه وسلم– حتى كانوا غرة في جبين التاريخ ، فما عرفت الدنيا قبلهم ، ويقيناً فلن تعرف بعدهم أمثالهم رضي الله عنهم أجمعين.

بيد أنّ هؤلاء الأصحاب هم من جملة بني آدم – وإن كانوا خيرهم– بعد الأنبياء عليهم السلام ، إلا أنهم غير معصومين ، ولم يقل أحد من الخلف أو السلف بالعصمة لغير الأنبياء، وقد جاء في حديث أنس– رضي الله عنه– أن النبي– صلي الله عليه وسلم– قال: "كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" (١)

وبحدوث هذه الأخطاء والاستغفار منها تظهر للخلق مجالي أسماء الله الحسني وصفاته العلي كالحلم والرحمة والمغفرة وغيرها.وهو القائل سبحانه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٢)

وفي مسلم قال رسول الله– صلي الله عليه وسلم– :" والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم" (٣).

---

(١)رواه ابن ماجه في سننه– باب ذكر التوبة ٣٠٢/١٢ رقم الحديث ٤٢٤١ وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح ٢٧/٢ رقم الحديث ٢٣٤١.

(٢)سورة الحجر الآيتان:٤٩، ٥٠.

(٣)أخرجه مسلم في كتاب التوبة– باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٣٠١/١٣ رقم الحديث: ٤٩٣٦. عن أبي هريرة رضي الله عنه .

إذا تقرر هذا.. وأن الخطأ لا محالة واقع من جملة بني آدم عدا الأنبياء- عليهم السلام - كان لابد من الوقوف علي المنهج النبوي الشريف في تهذيب أخطاء بعض الصحابة الكرام الذين جرت علي أيديهم أمور بقدر الله وحكمته لتكون دروساً عملية تنتفع بها الأمة جميعاً إلي قيام الساعة،ولتكون أيضاً منهجاً عملياً لورثة الأنبياء وهم العلماء يستضيئون به في دعوتهم إلي الله تعالي كما قال سبحانه:﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ومن هنا جاء هذا البحث المتواضع بعنوان:

قبس من المنهج النبوي في تهذيب الصحابة.. وكيفية استفادة الدعاة من ذلك.

وقد جاء متضمناً مقدمة وتمهيداً وأربعة مباحث وخاتمة وثبتاً بأهم المراجع وذلك علي النحو التالي:-

مضت سنة الأولين أن يعرفوا بمفردات عنوان البحث ليضفي عليه جمالاً،وعلي منوال هذه السنة الحسنة

([1])سورة يوسف الآية:١٠٨ .

فإني سأعطي في هذا التمهيد كلمة موجزة عن الآتي:-

- **أولاً**: المراد بكلمة قبس.
- **ثانيا**:المراد بالمنهج.
- **ثالثا**:المراد بتهذيب الصحابة .

فأقول والله المستعان:

أولاً:- المراد بكلمة قبس :-

جاء في تاج العروس:القَبَس محركة: النار، وقيل : الشعلة من النار.

ومن ذلك قوله تعالي﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾[2] أي جذوة من النار تأخذها في طَرَف عود.

وفي حديث علي رضي الله عنه: "...حتى أوري قَبَساً لقابس"[3] أي أظهر نوراً من الحق لطالبه كالمقباس..واقتبس العلم ومن العلم: استفاده .

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما :

" من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر"[4] [5].

([2])سورة النمل من الآية:٧ .

([3])لم أقف عليه.

([4])رواه أبو داوود- باب في النجوم ٤١٢/١٠ رقم ٣٤٠٦ وابن ماجه في باب تعلم النجوم ١٤٤/١١ رقم ٣٧١٦وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٣٥/٢ وساق إسناده ثم قال : رجاله كلهم ثقات .

([5])تاج العروس للزبيدى ٤٠٦٣/١ باب قبس ،مختار الصحاح للرازي ٢٤٧/١ باب القاف.

إذن القبس علي وجه العموم :الأخذ والاستفادة من شيء، وهذا الشيء غالباً ما يكون ناراً أو نوراً

فمن الأول قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾[1]

وإن كانت النار هنا نوراً في الحقيقة،

قال ابن عباس رضي الله عنهما: " لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج وفي رواية عنه قال: نور رب العالمين "[2]

ومن الثاني قوله تعالي واصفاً حال أهل النفاق يوم القيامة:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا.. ﴾[3]

وفي كل من النار والنور معنى الدلالة والإرشاد والهداية، فالنار يأتيها السراة ليلاً للدفء أو القِرى أو

([1])سورة طه الآية:١٠.

([2])انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧١ عند تفسيره لسورة النمل الآية: ٨ .

([3])سورة الحديد من الآية:١٣.

الاسترشاد أو كل ذلك معاً، ومنه قول الخنساء ترثي أخاها صخراً:

وإن صخراً لتأتم الهداة به.........كأنه علم علي رأسه نار[4]

والعلم هنا الجبل لقوله تعالي: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾[5]

أما النور فحسي وهو بدهي معلوم، ومعنوي وهو كثير فالله تعالي نور قال سبحانه:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[6] أي : هادي أهل السموات والأرض هكذا قال ابن عباس – رضي الله عنهما[7]

والنبي– صلي الله عليه وسلم- نور يُهتدي به ..قال سبحانه:

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾[8]

ومنه قول كعب بن زهير:إن الرسول لنور يستضاء به......مهند

([4])هذا البيت ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد- باب من رثي إخوته ٣٥٦/١.

([5])سورة الشورى الآية:٣٢.

([6])سورة النور من الآية:٣٥.

([7])انظر تفسير ابن كثير٣/ ٣٨٤ .

([8])سورة المائدة من الآية:١٥.

من سيوف الله مسلول(١)

والقرآن من أوصافه أنه نور..قال سبحانه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٢)

والصلاة نور..قال صلي الله عليه وسلم:"... والصلاة نور والصدقة برهان.. " (٣)وغير ذلك.

إذن فالمراد بقبس من المنهج النبوي:الاستفادة والاستضاءة بهذا النور حتى يسير الدعاة في طريقهم علي هدي مستقيم.

ثانيا: المراد بالمنهج

١- المنهج في اللغة :

ـ جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم:المنهاج الطريق البيّن الواضح ، مأخوذ من نَهَج الأمر: وضح ، فكأنه في الأصل صيغة مبالغة أو اسم آلة إذ به ينهج الأمر ويضح.

والمنهاج في الدين: الطريق البين الذي لا لبس فيه ولا إبهام ويستمر عليه الناس ويسيرون وفي التزيل العزيز:

(١)نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري – باب إسلام كعب بن زهير ٣٨١/٤ .

(٢)سورة النساء من الآية:١٧٤.

(٣)أخرجه مسلم في كتاب الطهارة– باب فضل الوضوء ٣/٢ رقم الحديث ٣٢٨. عن أبي مالك الأشعري

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٤).. (٥)

وحدد الراغب مفهوم المنهج فقال:"والمنهج الطريق الواضح، ونهج الطريق وأنهج:وضح

ومنه قولهم:نهج الثوب وأنهج: بان فيه أثر البلي"(٦)

٢- المنهج في الاصطلاح:

حدد بعض العلماء مفهوم المنهج في الاصطلاح بأنه: الطريق الحامل للمادة أو المادة نفسها المتفق عليها ، ومن ثم فإذا كان المراد بالمنهج المادة نفسها فيعرف علي أنه: الدعوة الإسلامية بجوانبها الثلاثة:العقيدة والشريعة والأخلاق..أي الدين.

وإذا كان المراد بالمنهج الطريق الحامل للمادة أي الوسيلة التي انتشر بها المنهج السابق فيكون المعني هو: مجموعة القواعد التي يتكون منها أسلوب معين يلتزمه الداعية لنشر دعوته حسب متطلبات عصره.." (٧)

(٤)سورة المائدة من الآية:٤٨

(٥)معجم ألفاظ القرآن الكريم– إعداد مجمع اللغة العربية ٢/٧٦٥ – مادة نهج– ط ٢ –١٩٧٠م

(٦)المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني –ص ٧٧٢ مطبعة الأنجلو المصرية –١٩٧٠م

(٧)المدخل إلي علم الدعوة لأبي الفتح البيانوني ص ٤٥ ، ٤٦ بتصرف – مؤسسة الرسالة ط ٣– ٢٠٠١م

٣- المنهج في ضوء المعني الشرعي:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الأصل في كلمة المنهج هو قوله تعالي: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

ومعني الآية:" أنه تعالي جعل التوراة لأهلها والإنجيل لأهله والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه"(١)

والحافظ ابن كثير يذكر عند قوله تعالي": شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.."أي سبيلاً وسنة، والسنن المختلفة هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه.. " (٢)

ومما سبق يتضح أن كلمة المنهج أو المنهاج وردت بمعني السبيل أو السنّة أي الطريق البين الواضح، وقد سار علي هذا الطريق الأنبياء والمرسلون– عليهم السلام–يبلغون دعوة الله إلي أقوامهم.(٣)

وإذا كان الله سبحانه قد أمر نبيه وخاتم رسله محمدا – صلي الله عليه وسلم– أن يقفو أثر إخوانه من الأنبياء السابقين فقال:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾(٤) فنحن المسلمين مأمورون بما أمر به الأنبياء في قوله تعالي:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٥) ومما لا يسع الدعاة جهله الوقوف بعمق وفقه علي منهج النبي – صلي الله عليه وسلم – في دعوته عموما إلي رسالة ربه.

ثالثا:كلمة موجزة عن تهذيب الصحابة – رضي الله عنهم–

جاء في مختار الصحاح: هذب التهذيب :التنقية، ورجل مهذب أي مطهر الأخلاق(٦)

وفي لسان العرب:

" وهذب الشيء يهذبه هذبا وهذبه : نقاه وأخلصه ..وقيل: أصلحه والمهذب من الرجال :المخلص النقي من العيوب .

وأصل التهذيب : تنقية الحنظل من شحمه ، ومعالجة حبه حتي تذهب

(١)الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣١٧/٣.

(٢)تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٩٣/٢ – ط ١ – الريان ١٩٩٦

(٣)منهج الدعوة إلي الله تعالي في ضوء سورة النمل للباحث

(٤)سورة الأنعام من الآية:٩٠

(٥)سورة الأحزاب الآية:٢١

(٦)مختار الصحاح للرازي ٣٢٨/١ – باب الهاء

مرارته، ويطيب أكله، ومنه قــول أوس : ألم تريا إذ جئتما أن لحمها

......به طعم شري لم يهذب وحنظل .

ويقال:ما في مودته هــذب – أي صفاء وخلوص.. قال الكميت:

معــدنك الجـوهر المهــذب

ذو....الإبريز بخ ما فوق ذا هذب.. (١)

" وهذب النخلة: نقى عنها الليف.. وأصل ا لتهذيب والهذب : تنقية الأشجار بقطع الأطراف لتزيد نمواً وحسناً ، ثم استعملوه في تنقية كل شيء وإصلاحه وتخليصه من الشوائب حتى صار حقيقة عرفية في ذلك، ثم استعملوه في تنقيح الشعر وتزيينه وتخليصه مما يشينه عند الفصحاء وأهل اللسان"(٢)

وبعد...فهذا موجز ما ذكرته كتب المعاجم اللغوية عن لفظ التهذيب ، وأري أن قد بان المراد منه واتضح وهو يعني في بساطة:-

بذل الجهد والمحاولة الجادة لبلوغ الكمال في محاسن الصفات ،فإذا اقترن التهذيب بالأصفياء الأخيار وهم الصحابة الأبرار – رضي الله عنهم – زاد الجمال جمالاً ، والصفاء صفاءً ،كيف وقد علمت أن الذي يقوم بالتهذيب هو سيد ولد آدم سيدنا محمد– صلي الله عليه وسلم -؟

وقد أسلفت القول أن أحداً لا يدّعي العصمة لغير الأنبياء والمرسلين سلفاً وخلفاً فهذه عقيدة ،ولا يعني هذا أن يخرج علينا أحدٌ فينال من أصحاب رسول الله– صلى الله عليه وسلم- إجمالاً أو تفصيلاً، بحجة عدم العصمة لهم ويفتري الكذب فيقول إننا وهم سواء بسواء متخذاً من بعض الزلات والهنات التي حدثت من بعض الصحابة ذريعة للنيل منهم والقدح فيهم ،وهـذا مما عمّت به البلوى بأخرة ، فلا يكاد يخفت نباح أحدهم حتى يعقبه نباح آخر في هجمة شرسة– وإن كانت بحمد الله فاشلة – للتهوين من أقدار هؤلاء الأخيار في نفوس المسلمين ،

ولو أن المفترين على مقام الصحابة من غير المسلمين إذاً لهان الأمر ، وتلمسنا لهم المعاذير حيث إن هؤلاء قد أكل الغيظ أكبادهم لما رأوا هؤلاء الأصحاب وقد سحبوا البساط من تحت أقدامهم فملأوا الأرض عدلاً ونوراً ففتحوا البلاد وساسوا العباد بمنهج الله رب العالمين ، ورفعوا لواء التوحيد على جبال السند وفي ربوع الهند وعلى

(١)لسان العرب لابن منظور ٧٨٢/١– باب هذّب.

(٢)تاج العروس للزبيدي ١٠٢٦/١– باب هذّب

سواحل المحيط غرباً وذلك كله في برهة من الزمن لا تكاد تحسب في عمر الدنيا ، ولكأن الزمن نفسه قد توقف لهم ،أو لكأن الأرض كانت تطوى تحت سنابك خيولهم ، وهؤلاء – أعني غير المسلمين – قد نبأنا الله من أخبارهم وأطلعنا على ما تكنه صدورهم فقال سبحانه ﴿.. قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ.﴾ (١) وقال: ﴿.. وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢)

أما أن يأتي الاجتراء علي مقام الصحابة – رضي الله عنهم – والتنقص من شأنهم من قوم هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويحيون بين ظهرانينا، فهذا لعمري هو البلاء المبين، والخطب الجسيم.، وإن تعجب فعجب قولهم إنها حرية فكر فلمَ تحجرون علي عقولنا؟!..ولا والله ما هي بحرية فكر ولكنها حرية فسق وزندقة، إنما حملة للطعن في الدين بدايتها التهوين من قدر الصحابة في نفوس المسلمين ، وإلا فلماذا لم تظهر الدعوة إلي حرية الفكر إلا فيما يتعلق بالتطاول علي الدين ورموزه؟ حتى صار ذلك مطية لكل قزم أن يصل إلي شتي وسائل الإعلام ويملأ شدقيه بأنه مفكر، وأنه صاحب فكر مستنير، وربما وجدته تحت لقب المفكر الإسلامي الكبير وغير ذلك من الألقاب التي تعطي جزافاً دونما رقيب أو حسيب.

– وبقي سؤال يطرح نفسه:من هم أولئك الأصحاب الذين حرص النبي – صلي الله عليه وسلم– علي تهذيبهم للوصول بهم إلي قمة الأخلاق الرفيعة وليصفي بواطنهم وظواهرهم ؟؟

– إنهم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه كما قال سبحانه:﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ (٣)

وهم الذين اختارهم الله لرفقة نبيه وخليله فقال له﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤)– إنهم الذين عدلهم الله بقوله:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٥)

(١)سورة آل عمران من الآية: ١١٨

(٢)سورة آل عمران من الآية: ١١٩

(٣)سورة التوبة من الآية : ١٠٠

(٤)سورة الأنفال الآية:٦٤

(٥)سورة الفتح الآية :١٨

ثم إنهم الذين وصفهم الله بالصادقين والمفلحين..[1] وهم أيضاً الذين عدلهم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقال:" خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..." [2]

وغير ذلك من الآثار الصحيحة تركتها هنا لضيق المقام،وعلي حد قول أحد العلماء:" فالأخبار في هذا المعني تتسع وكلها مطابقة لما في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع علي تعديلهم ونزاهتهم فلا يحتاج أحد منهم – علي تعديل الله تعالي لهم المطلع علي بواطنهم– إلي تعديل أحد من الخلق،علي أنه لو لم يرد من الله ورسوله فيهم شيء لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد،والنصرة وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، [3] والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطع علي عدالتهم،

(1)إشارة إلي الآيتين في سورة الحشر: ٨،٩

(2)أخرجه البخاري في كتاب الشهادات – باب لا يشهد علي شهادة جور إذا أُشهد– ١٣٣/٩رقم– ٢٤٥٧

ومسلم في كتاب فضائل الصحابة – باب فضل الصحابة ثمّ الذين يلونهم..– ٣٥٦/١٢– رقم ٤٥٩٩

(3)إشارة إلي عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

والاعتقاد بنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين.." [4]

– إن هؤلاء الذين يملأ ون الدنيا نعيقا متخذين من هذه الهنات اليسيرة، والأخطاء القليلة لبعض الصحابة ذريعة للنيل منهم والطعن فيهم جهلوا أو تجاهلوا أن هذه الحوادث تكاد تكون معدودة ومحصورة لقلتها وندرتها وذلك علي امتداد تاريخ الصحابة – رضي الله عنهم – والذي أعطي لها هذا الظهور والجلاء طهارة المجتمع ونقاؤه، تماماً كالثوب ناصع البياض تظهر فيه أية آثار غير طيبة يراها الناظر من بُعد،لا لأنها واضحة ظاهرة ولكن لبياض الثوب الناصع.

– وما أجمل قول أبي زرعة الرازي:"إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فاعلم أنه زنديق،لأن رسول الله عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدي إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا

(4)انظر العواصم من القواصم لابن العربي ٦١/١

الكتاب والسنة والجرح بهم أولي وهم زنادقة.." [1]

– وأري أن قد طال المقام في هذا التمهيد ولكن كما يقال:لابد مما ليس منه بد....وها قد أزف الترحل..

(1)تهذيب الكمال للمزي ٩٦/١٩ وانظر تاريخ دمشق ٣٨/٣٢ .

قبس من المنهج النبوي في تهذيب الصحابة بالحكمة

عرّف العلماء الحكمة علي أنها معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها:حكيم،

ومنه حديث صفة القرآن:" وهو الذكر الحكيم"[2] أي الحاكم لكم وعليكم أو هو المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب[3]

وقد كثرت تعريفات الحكمة اللغوية والاصطلاحية حتى قال الإمام النووي – رحمه الله – في ذلك:

"وأما الحكمة ففيها أقوال كثيرة مضطربة قد اقتصر كل من قائليها علي بعض صفات الحكمة

ثمّ اختار – رحمه الله – هذا التعريف فقال:الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالأحكام المشتمل علي المعرفة بالله، والمصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب

(2)سنن الترمذي – باب ما جاء في فضل القرآن ١٤٧/١٠ رقم ٢٨٣١ وضعفه الألباني في المشكاة ٤٨٤/١ رقم٢١٣٨. والحديث عن الحارث رضي الله عنه .

(3)النهاية في غريب الأثر ١٠٢٣/١– باب الحاء مع الكاف .

النفس ،وتحقيق الحق والعمل به، والصدّ عن اتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك،قال أبو بكر بن دُريد: كل كلمة وعظتك وزجرتك أو دعتك إلي مكرمة،أو نهتك عن قبيح فهي حكمة وحكم"(١)

ولا ريب في أن الحكمة من صفات الأنبياء وهي ليست قاصرة عليهم بل يشاركهم فيها غيرهم من أولياء الله الصالحين كما قال سبحانه:﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا ﴾(٢)

وقد بلغ نبينا محمد – صلي الله عليه وسلم – من الحكمة ذروتها فاستطاع بإذن ربه أن يجعل من أولئك الأجلاف رعاة الغنم قوماً قادوا الأمم..

ومن النماذج التي تجلت فيها حكمته – صلي الله عليه وسلم – في تهذيب الصحابة ما يلي: –

١– النموذج الأول :–

أخرج أصحاب الصحاح والسنن عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن أعرابياً دخل المسجد ورسول الله – صلي الله عليه وسلم – جالس فصلي ركعتين ثمّ قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال النبي – صلي الله عليه وسلم – " لقد تحجّرت واسعاً"

ثمّ لم يلبث أن بال في ناحية المسجد فأسرع الناس إليه فنهاهم النبي – صلي الله عليه وسلم – وقال :" إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين، صبوا عليه سجلاً من ماء أوقال ذنوباً من ماء"(٣)

وفي رواية ابن ماجه :" دخل أعرابي المسجد ورسول الله – صلي الله عليه وسلم – جالس فقال اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا، فضحك رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وقال:" لقد احتظرت واسعاً" ثمّ ولّي حتي إذا كان في ناحية المسجد فشج يبول..فقال الأعرابي بعد أن فقه:فقام إليّ – بأبي وأمي – فلم يؤنب ولم يسب فقال:" إن هذا المسجد لا يُبال فيه وإنما بُني لذكر الله وللصلاة" ثمّ أمر بسجل من ماء فأفرغ علي بوله"(٤)

---

(١)انظر شرح النووي علي مسلم ٣٣/١ .

(٢)سورة البقرة من الآية: ٢٦٩.

(٣)الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوضوء – باب صب الماء علي البول في المسجد ٣٦٩/١ رقم ٢١٣.

ومسلم في كتاب الطهارة – باب وجوب غسل البول وغيره ١٣٣/٢ رقم ٤٢٩

وأبو داود في سننه – باب الأرض يصيبها البول ٤٦٢/١ رقم ٣٢٤ واللفظ له.

(٤)سنن ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها – باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل ١٤٩/٢رقم ٥٢٢. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وبالتأمل في هذه الحادثة:

نجد أن رجلاً من الأعراب وهم الذين يسكنون البوادي،وفي معظمهم شدة وجفاء ،وفي قلوبهم غلظة وقسوة، وكأنهم قُدوا من الطبيعة التي يحيون فيها حيث الصحاري والقفار،

وقد تحدث القرآن عنهم في مواطن كثيرة ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١)

إذن فمنهم الطيب ومنهم الخبيث ،والطيب يحتاج إلي توعية وتقويم وتهذيب وتعليم، حتى تصفو روحه وتزكو نفسه.

دخل الأعرابي المسجد وكان حديث عهد بالإسلام فأراد أن يتقرب إلي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فرفع عقيرته بهذا الدعاء:اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً،!.هذا ما أسعفته به بديهته وجادت به قريحته ، والرجل إلي هذه اللحظة جدّ معذور، فذا طبعه، وتلك طبيعته ، وكم تأبي الطباع علي الناقل !

وقد جاء تهذيب النبي – صلي الله عليه وسلم – لهذا الأعرابي كما في رواية ابن ماجه : " فضحك رسول الله – صلي الله عليه وسلم "

وهذا أول ما يبدأ به الداعية الأريب نصحه ودعوته في مثل هذا الموطن،والبسمة الصادقة تعرف طريقها إلي القلب قبل الوعظ والإرشاد،ولهذا قال النبي – صلي الله عليه وسلم – : " .... وتبسمك في وجه أخيك صدقة"(٢)

وقد كان من صفة نبينا – صلي الله عليه وسلم – أنه الضحوك القتّال، وأنه بسّام المُحيا..

وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان: باب التبسم

---

(١)سورة التوبة الآيات :٩٧ – ٩٩ .

(٢)أخرجه ابن حبان في كتاب البر والإحسان – باب حسن الخلق ٤٤١/٢ رقم ٤٧٥ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٦٦/٢ والحديث عن أبي ذر رضي الله عنه.

والضحك، وأورد تحته حديث أنس – رضي الله عنه – قال كنت أمشي مع النبي – صلي الله عليه وسلم – وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلي صفحة عاتق النبي – صلي الله عليه وسلم – وقد أثرت فيه حاشية الرداء وشدة جبذته، ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك إليه ثمّ أمر له بعطاء "(١)

وكم ذا يحتاج كثير من دعاة المسلمين اليوم إلي توظيف هذه الهيئة الخلقية وهي البسمة الصادقة علي قسمات وجوههم لاسيما وأن في المسلمين اليوم من هم أعراب الطباع أكثر جفاءً ونفوراً من أعراب البوادي والقفار،

وإنك لتجد كثيراً من المنتسبين إلي العمل الدعوي وقد علا وجوههم التقطيب والعبوس، فوجوههم مكفهرة، وكأنّ النار ما خلقت إلا لهم، ولو قيل إن هذا من باب الخشية والخوف من الله لقلنا إن السلف الصالح لهذه الأمة وهم أبر وأتقي وأخشى لله من غيرهم لمن بعدهم قالوا : إنه ينبغي علي من يقوم الليل تاليا باكيا ألا يظهر ذلك علي وجهه بالنهار للناس حتي لا يتسرب الرياء إلي قلبه، وأنهم كانوا يصومون تطوعا في اليوم الصائف فإذا يبست شفاههم أخذوا من ريقهم عليها اتقاء للرياء،

إن ارتسام البسمة علي الوجه أصبح مما يدرس في بعض المصالح التي تتطلب الاحتكاك بالجمهور لا سيما البنوك والمطارات والمحلات التجارية وغيرها لما لها من أثر فاعل في جلب وكسب الناس، ناهيك عن الشر المستطير مما يتقمصه المنصرون من ابتسامة ماكرة لجلب الناس إلي المسيح.

وبعد أن ضحك النبي – صلي الله عليه وسلم – في وجه الأعرابي ألقي إليه نصحه ووجّهه وأرشده في أسلوب رفيق رقيق:" لقد تحجرت واسعا" أو لقد احتظرت واسعاً يعني لقد ضيقت واسعاً ، ورحمة الله ومغفرته واسعة كما قال سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢)

والإنسان عموماً من طبعه

(١)أخرجه البخاري – كتاب الأدب – باب التبسم والضحك ٣٩/١٩رقم ٥٦٢٤.

(٢)سورة الأعراف من الآية: ١٥٦.

الإمساك كما قال سبحانه: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ (١)

فكيف إذا اجتمع مع الطبع العام الطبع الخاص للأعرابي الذي يتنقل في الصحراء بحثاً عن الماء والكلأ متوجساً خيفة من المستقبل ؟! وما كاد النبي – صلي الله عليه وسلم – يتمّ كلامه حتي أدركت الأعرابي بولته، فراح إلي ناحية المسجد فجعل يبول، فأسرع إليه الناس وفي رواية البخاري : فثار إليه الناس ليقعوا به، فنهاهم النبي – صلي الله عليه وسلم – أن يقطعوا عليه بولته،

وهذا النهي يستفيد منه الدعاة ما يلي:-

١- فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:-

فإنه إذا أدي تغيير المنكر إلي منكر أشدّ منه وأقبح لزم الترك،والصحابة – رضي الله عنهم – لو تُركوا وما أرادوا من النيل من الأعرابي لأدي الأمر إلي نتيجة عكسية غير متوقعة ولا مرادة،فإما أن يقطع بوله فيتضرر بانحباس البول فيه،وهو ما أكده الطب الحديث اليوم، وهو من المفسدة بمكان ،لأن الحفاظ علي سلامة النفس من الضرورات الخمس التي أمر الشارع الحكيم بالمحافظة عليها،وإما أن لا يقطع الأعرابي بوله فينجس بدنه وثيابه، وتنتشر النجاسة في المسجد أضعاف ما لو تُرك يبول في مكانه،

وهذا درس عظيم يلقنه النبي – صلي الله عليه وسلم – للصحابة ومن يأتي بعدهم أن يفقهوا أولاً حق لا تقع البلية وتكثر الفوضي ، وهذا ما حدا بعلماء المسلمين أن يستنبطوا الضوابط والشروط التي تبتغي في القائم علي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلتراجع في مظانّها.. (٢)

وقد وقع نتيجة لعدم الفقه فيما يتعلق بالدعوة شر مستطير في العصر الحديث ، حيث أجهضت حركات إسلامية كانت تعمل مخلصة لدينها وأمتها، بيد أن النوايا الحسنة وحدها لا تكفي إذ لابد من العلم والفقه فاستعجال الإصلاح والتغيير أمر خطأ يؤدي إلي الفوضى ، وعدم احترام النظام

(١)سورة الإسراء الآية: ١٠٠.

(٢)علي سبيل المثال: الأحكام السلطانية للإمام /الماوردي،والحسبة لشيخ الإسلام ابن تيمية،وإحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

يؤدي إلي البلبلة ، وقد دخل في هذه الحركات كثير من سيء النية لمآرب في أنفسهم ، فاختلط الحابل بالنابل ، وأُخذ المحسن بالمسيء ، فأريقت دماء ،وأهدرت أموال ، وتبددت طاقات ، وتمزقت هذه الحركات أيادي سبأ ، حتي ليمر الواحد بصاحبه فيقول انجُ سعد فقد هلك سعيد.

٢- قاعدة العذر بالجهل:

وهي قاعدة من الأهمية بمكان حتي لا تصدر الأحكام جزافاً أو اعتباطاً، فإن الأعرابي كان حديث عهد بالإسلام، ومثله يحتاج إلي تعليم وإرشاد قبل الزجر والتأديب، ويحتاج إلي الإعذار قبل الإنذار حتي تقام عليه الحجة، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[١] وإن من الحكمة في إرسال الرسل – عليهم السلام – انقطاع الحجة كما قال سبحانه: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٢]

ولهذا فإن علماء المسلمين اشترطوا علي الداعي أن يقوم أولا بتعريف المدعو وإعلامه بالمخالفة الشرعية أو المنكر الذي يرتكبه[٣] وهو عين ما فعله النبي – صلي الله عليه وسلم – مع الأعرابي حيث قال له: " إن هذا المسجد لا يبال فيه ، وإنما بُني لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن".

وقد وقع هذا التوجيه النبوي من الأعرابي موقعه ، وكم في المسلمين اليوم من أشباه ونظائر هذا الأعرابي يحتاجون إلي لمسة حانية ، ونصيحة هادية ، تخفق لها قلوبهم ، وتلين بها جلودهم.

إن قاعدة العذر بالجهل يحتاج إليها اليوم كثير من الدعاة الذين يتصدرون لمهمة الدعوة إلي الله تعالي في البلاد الإسلامية والذين يذهبون إلي المجتمعات غير الإسلامية وفيها أقليات مسلمة، أقول يحتاجون إلي هذه القاعدة حتي يضعوا الأمور في نصابها الصحيح،فيجمعوا ولا يفرقوا ، ويتفقوا ولا يختلفوا ، ويكونوا دعاة إلي الله لا حكّاماً علي الناس.

فإن بعض هؤلاء الدعاة يعطي صورة مشوهة للإسلام والمسلمين، بحيث إنك لو اطلعت عليهم لم تجد في جعبتهم إلا سهاماً أقصد أحكاماً جاهزة تشبه

(١)سورة الإسراء من الآية:١٥

(٢)سورة النساء من الآية:١٦٥ .

(٣)انظر إحياء علوم الدين ٤٦٩/٢

الصكوك، فهذا حلال وذا حرام ، وهذه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وهذا كافر لا يغسل ولا يكفن ولا يصلي عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين! وعندئذ فلا يسع السامع إلا أن يولي منهم فراراً ويمتلئ منهم رعباً.

٣- قاعدة ارتكاب أخف الضررين:-

وهي قاعدة أصولية قعّدها علماء أصول الفقه، وقد وضحت هذه القاعدة في ترك الأعرابي يكمل بوله،وهو لا شك في كونه ضرر لأنه يؤدي إلي نجاسة المسجد، ولكن الضرر الأكبر من ذلك كما سبق في انتهاره وإزعاجه وهذا علي صعيد الطهارة، ولكن ماذا علي صعيد الدعوة؟

إن النبي – صلي الله عليه وسلم – لو ترك الصحابة وما أرادوا بهذا الأعرابي لعله كان يجالدهم بالسيف، أو لعله كان يمتطي ظهر ناقته ويولي مدبراً لا يلوي علي شيء، ويترك الإسلام الذي لم يتعرف عليه بعمق بعد.

كل هذه احتمالات لكنها اليوم واقعة في ظل أخطاء بعض الدعاة، فكم من رجل ترك المسجد من أجل نصيحة علي الملأ لم يكن هذا أوانها!! بل كم من أفواه كممت لأجل خطب نارية يغلب عليها التناطح لا التناصح،ويغلب عليها الشدة والتعسير لا الرفق والتيسير.

ولهذا فقد وجه النبي – صلي الله عليه وسلم – أصحابه إلي المنهج القويم في مثل هذه الحوادث فقال لهم: " إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"..

ويمكن للدعاة أن يستفيدوا من هذا النص ما يلي:-

١- شرف الدعاة إلي الله تعالي:

ويكفي في شرفهم أن ينسبهم النبي – صلي الله عليه وسلم – إلي البعثة في قوله"إنما بعثتم" – وإن كان اللفظ هنا علي المجاز لا الحقيقة[١] إلا أن الشرف لاحق بكل داعية يستمد منهجه من رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وحسبك أن تتلو هذه الآية التي توضح أن الدعاة هم أتباع النبي وخلفاؤه من بعده لتبليغ دعوة الله إلي العالمين قال سبحانه:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٢]

(١)انظر فتح الباري ٣٤٧/١ رقم ٢١٣ .

(٢)سورة يوسف الآية: ١٠٨ .

وهذا المعني الرفيع يشعر بالإحساس بالمسؤولية الضخمة والتبعة الملقاة علي عاتق الدعاة حيث إنهم يتحدثون عن الله ورسوله،وكأنهم مبعوثون من عند الله علي الحقيقة،وهو ما جعل الصحابي الجليل ربعي بن عامر – رضي الله عنه – يجيب وقد سأله قائد الفرس:– من أنتم وما جاء بكم؟ بقوله"الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلي عبادة الله ،ومن ضيق الدنيا إلي سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلي عدل الإسلام.."(١)

ولعلك الآن عرفت السر في تقدم الصحابة – رضي الله عنهم – منتشرين في أرض الله مرفوعة هاماتهم،موفورة كرامتهم،ذلك أنهم استشعروا موقعهم الذي ينبغي أن يكونوا فيه في هذا العالم، وأن الله اختارهم لهذا وخصهم به ،فاستعذبوا من أجل ذلك الصعاب ، وهان عليهم بذل الأنفس والأموال،وترك الديار والأوطان،لا يرضون أبدا أن يكونوا هملا لا قيمة لهم ،وكأن كل واحد منهم معني هذا القول:– قد رشحوك لأمر لو فطنت له..فاربأ بنفسك أن ترعي مع الهمل (٢)

وصدق القائل:– وإذا كانت النفوس كبيرة ....تعبت في مرادها الأجسام (٣)

٢–التيسير علي الناس والرفق بهم:

التيسير على الأمة والرفق بها هو منهج النبي– صلى الله عليه وسلم في دعوته ففي الحديث أنه " ما خُيّر بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً..."(٤)

وهناك أمور لا تُجدى فيها الشدة، وإنما هو الرفق الذي يعطى الله عليه ما لا يعطيه على الشدة .

وقد بعث الله موسي وأخاه هارون – عليهما السلام – إلي أفجر أهل الأرض الذي ادعي الربوبية والألوهية وعاث في الأرض فساداً فقال لهما : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١)

ولا أظن أن أحداً من أهل الأرض اليوم كفرعون،فكيف إذا كان مسلماً ؟! فالرفق به أولي وأجدر، وهذا هو المراد بقوله – صلي الله عليه وسلم – "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين".

– الآثار المترتبة علي منهج النبي – صلي الله عليه وسلم – في تهذيب الأعرابي:–

جاء في الحديث الذي رواه ابن ماجه"....فقال الأعرابي بعد أن فقه،فقام إليّ – بأبي وأمي – فلم يؤنب ولم يسب.."

بهذا القول المهذب الوادع نطق الأعرابي ذو الطبع الجافي لما لمسه من خلق رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ورفقه به ،

إنك أن تسمع أعرابياً يفدي أحداً بأبيه وأمه فذا ضرب من الخيال ! لكنه هنا قالها بلسانه معبراً عما في جنانه، لقد لانت عريكته ، وصفت نفسه ، وتهذبت طباعه ، فصار عضواً صالحاً في المجتمع .

ويذكر الأعرابي أن النبي – صلي الله عليه وسلم – لم يؤنبه ولم يسبه، لا تأنيب لأن الظرف لا يستدعيه، والطبع لا يحتمله، ولا سباب لأن هذا ليس للداعية – فضلاً عن النبي – بخُلق فقد قال أنس بن مالك – رضي الله عنه – :" لم يكن النبي – صلي الله عليه وسلم – سبّاباً ولا فحّاشاً ولا لعّاناً، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ماله ترب جبينه "(٢)

وهكذا كان منهج النبي – صلي الله عليه وسلم – دائماً في تقويم أصحابه فيعاملهم علي قدر فهمهم ، ويخاطبهم علي قدر عقولهم ، حتى يستقيموا علي الجادة، ولهذا فقد جاء في الحديث : " أمرنا معاشر الأنبياء أن نخاطب الناس علي قدر عقولهم "(٣)

وهذا مما يحتم علي الدعاة اليوم أن يكونوا علي بصيرة كاملة بالواقع المحيط بهم والبيئات التي يحيون فيها حتى يتسنى لهم القيام بواجبهم ،ومن هنا ندرك الحكمة في إرسال الله – تعالي–لكل أمة رسولاً منها قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

---

(١)انظر الكامل لابن الأثير ٤١٣/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٤٧/٧ .

(٢)هذا البيت للطغرائي انظر سير أعلام النبلاء١٩/٤٥٤،وانظر وفيات الأعيان ١٨٨/٢.

(٣)هذا البيت للمتنبي– انظر أدب الدنيا والدين ٤٠٢/١ وذكره صاحب الإحياء في فوائد السفر ٨٨/٢

(٤)رواه البخاري – كتاب الأدب – باب قول النبي صلي الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا– ٨٨/١٩ رقم ٥٦٦١ عن عائشة رضي الله عنها.

(١)سورة طـــه الآيتان : ٤٣،٤٤ .

(٢)رواه البخاري – كتاب الأدب – باب لم يكن النبي– صلي الله عليه وسلم– فاحشاً ولا متفاحشاً ٤٥٦/١٨ رقم ٥٥٧١ .

(٣)رواه الديلمي بسند ضعيف وله شواهد كثيرة رفعته إلي مرتبة الحسن لغيره – انظر كشف الخفا للعجلوني – حرف الهمزة.

بلسان قومه ليبين لهم﴾ (١)

ولهذا المعنى أيضاً أشار الإمام الغزالي – رحمه الله – فقال :" ومن مهام المعلم أن يقتصر علي قدر فهمه – أي الطالب – فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخبط عليه عقله، ولذلك قيل :كل لكل عبد بمعيار عقله ، وزن له بميزان فهمه، حتي تسلم منه وينتفع بك،وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار "(٢)

وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه باباً فيمن خصّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أن النبي – صلي الله عليه وسلم – ومعاذ رديفه علي الرحل قال :" يا معاذ بن جبل " قال لبيك يا رسول الله وسعديك ،قال:" يا معاذ" قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً قال :" ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله علي النار" قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال" إذن يتكلوا" وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً.. "(٣)

(١)سورة إبراهيم من الآية: ٤ .

(٢)إحياء علوم الدين للغزالي ٦٢/١ .

(٣)رواه البخاري – كتاب العلم – باب من خص بالعلم قوماً...–٢١٨/١ – رقم ١٢٥ .

وقد ذكر الإمام مسلم في مقدمة صحيحه باباً بعنوان :النهي عن الحديث بكل ما سمع أورد فيه حديث رسول الله – صلي الله عليه وسلم – " كفي بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع "(٤)

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال :" ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة "(٥)

وقد راعي النبي – صلي الله عليه وسلم – ذلك مع مسلمة الفتح فقد تمني أن لو يهدم الكعبة ثم يعيد بناءها علي أساس الخليل إبراهيم – عليه السلام – لكن أهل مكة حديث عهدهم بجاهلية ولّما يدخل الإيمان في قلوبهم، فقد يثير الأمر حفيظتهم فينكصون علي أعقابهم،

وطالما أن في الأمر مندوحة وسعة، وليس فيه تكليف من الله تعالي فلتترك هذه القضية رويداً ريثما تتهيأ الظروف.

تقول أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – قال لي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – : " لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته علي أساس إبراهيم – عليه السلام – فإن

(٤)مقدمة صحيح مسلم ١٥/١ رقم ٦ .

(٥)السابق ١/١ ٢ .

قريشاً استقصرت بناءه، وجعلت له خلفاً"(١)

وقد عدّ الإمام الشاطبي مخالفة هذا المنهج ومخاطبة الناس بما لا يفهمون نوعاً من أنواع البدع فقال:" ومن ذلك التحدث مع العوام بما لا تفهمه ، ولا تعقل معناه ،فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها ، فسامعها إما أن يفهمها علي غير وجهها وهو الغالب ، وإما أن لا يفهم منها شيئاً وهو أسلم ، ولكن المتحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون ، بل صار في التحدث بها كالعابث بنعمة الله "(٢)

ويؤكد الإمام الماوردي علي أهمية مراعاة أحوال المتلقي العقلية فيقول:

" وينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقاته وقدر استحقاقه،فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم، وإن لم يكن العالم غير عارف بأبنائه وتلاميذه، وخفيت عليه أحوالهم ،ومبلغ استحقاقهم، كانوا وإياه في عناء مكد ،وتعب غير مجد "(٣)

(١)رواه البخاري – كتاب الحج – باب فضل مكة وبنيانها٤٩٦/٥ رقم ١٤٨٢.

ورواه مسلم – كتاب الحج – باب نقض الكعبة وبنائها ٢٧/٧ رقم ٢٣٦٩ .

(٢)الاعتصام للإمام الشاطبي

(٣)أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي ٩٤/١ بتصرف.

٢- النموذج الثاني:

عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال :إن فتي شاباً أتي النبي – صلي الله عليه وسلم – فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه ، وقالوا : مه مه ! فقال – صلي الله عليه وسلم – " ادنه " فدنا منه قريباً ،قال فجلس ، قال : " أتحبه لأمك ؟" قال : لا والله جعلني الله فداءك ،قال : " ولا الناس يحبونه لأمهاتهم " قال" أفتحبه لابنتك ؟" قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لبناتهم " قال : " أفتحبه لأختك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لأخواتهم " قال : أفتحبه لعمتك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : " ولا الناس يحبونه لعماتهم " قال : " أفتحبه لخالتك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداءك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم " قال : فوضع يده عليه وقال : " اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصّن فرجه " فلم يكن بعد ذلك الفتي يلتفت إلي شيء "(٤)

(٤)مسند الإمام أحمد ٢٥٦/٥، ٢٥٧ وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٦٩/١ رقم ٣٧٠ قال:وهذا سند صحيح – رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح .

– وأنت بعد – أيها الداعية الكريم – في هذا النموذج علي موعد مع الحكمة في أبهي صورها ، وأجلي معانيها ،فهذا شاب فتي قد امتلأ فتوة وقوة ، وفي نفس الوقت قد تملكته الشهوة حتي طغت علي كل كيانه ،فهو يدور في فلكها حيث دارت ،وما من سبيل إلي كبح جماحها ،بيد أنه لم تزل به أثارة من دين ، وبقية من خُلق ،فأراد أن يقارف الإثم لكن بعد أن يضفي عليه ثوب الشرعية ما استطاع إلي ذلك سبيلاً،

فدخل علي النبي – صلي الله عليه سلم – وحوله أصحابه يحفون به ، لجهر بغايته، واستعلن بمراده ، لا يمنعه حياء ولا غيره ، فقام إليه الصحابة مزمجرين زاجرين لهول ما سمعوا،إذ لم تسمع آذانهم مثل هذا النكر من قبل،ولن يسبق هذا الشاب أحد إلي ما يريد،

ولأول وهلة يبدو فعل الصحابة – رضي الله عنهم – من البدهيات ،فمثل هذا الشاب يجب أن يُعزر ويؤدب ،لا سيما وهو في بيئة صالحة ومجتمع إسلامي نظيف ، حتي لا يجتريء غيره بعد ذلك ،

ولكن المعلم الأول – صلي الله عليه وسلم – له أسلوب آخر في التعامل مع مثل هذه القضايا ..فأدناه منه وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه ، وهذا أول الطريق في كفكفة غلواء هذا الشاب ، وكبح جماح شهوته ،ثمّ ....لم يمطره النبي – صلي الله عليه وسلم – بوابل من كلمات العتاب والملام ، أو بوابل من آيات الترهيب والعذاب، وأحاديث الوعيد الشديد لمن يقارف مثل هذه الذنوب ، وما ذلك إلا لحكمته وعلمه – صلي الله عليه وسلم – أن أحداً من الناس لا يجهل مثل هذه الأوليات ، وإلا لما جاء هذا الشاب مستأذناً ..، فسلك معه النبي – صلي الله عليه وسلم – طريق الإقناع العقلي بالحكمة والرفق رويداً رويداً حتي تلين عريكته ،، فجعل يسأله هل يحب هذا الفعل الشائن لأحد من محارمه ، ويجيب الشاب بالنفي القاطع ، ويؤكد له النبي – صلي الله عليه وسلم – أنّ الناس جميعاً لا يرضونه لمحارمهم.

– وقد بدت علامات الاستجابة من الشاب هذا في ثنايا كلامه وهو يفدي النبي – صلي الله عليه وسلم – بهذه العبارة الرقيقة "جعلني الله فداءك".

– ولم يبقَ بعد ذلك إلا سلاح الدّعاء ، فدعا له النبي – صلي الله عليه وسلم – أن يغفر الله ذنبه ، ويطهر قلبه ، ويحصن فرجه.

وقد كانت الاستجابة فورية

فانقلب هذا الشاب من مجلس رسول الله – صلي الله عليه وسلم – بنعمة من الله وفضل ، فلم يلتفت بعدُ إلي محرّم قط ، وصار الزنا أبغض شيء إلي قلبه ،وذلك ببركة حكمته وعلمه – صلي الله عليه وسلم –

– ما يمكن أن يستفيده الدعاة إلي الله من ذلك : –

١– عدم العجلة والتريث الكامل في إصدار الأحكام ، أو اتخاذ القرار ،أو استخدام العلاج ، لأن العجلة من الشيطان ومحال أن تأتيَ بخير ، والتسرع دليل الطيش والرعونة .

وأنت بعدُ خبير – أيها الداعية – أن لو ترك النبي – صلي الله عليه وسلم – الصحابة وما أرادوا بهذا الشاب لأدي ذلك إلي فتنته ، ونكوصه علي عقبيه ، لا سيما وهو في أوج شهوته ، وثورة شبابه وقوته ، فتخسر الجماعة المسلمة عضواً من أعضائها ، وتدعه فريسة لشهواته ونزواته

٢– لابد في مجال الدعوة إلي الله تعالي من توصيف الداء بدقة متناهية، حتي يمكن بعد ذلك إعطاء الدواء ،وإنه لمن العجب أن يُعني بذلك في مجال الأمراض العضوية ، ويتطرق إليه الإهمال في مجال الأمراض الروحية، مع أنه في مجال الروح أولي ،

لأن غاية ما قد يصيب الجسد الفناء والزوال في الدنيا ،أمّا الروح فإنَ في عطبها خسران الدنيا والآخرة .

– وقد تجلّي توصيف الداء في منهج النبي – صلي الله عليه وسلم – في تقرير الشاب بين يديه ،

أقول ذلك لأن بعض الدعاة إذا سُئل عن حكم ما مثلاً ، أو تعرّض لقضية ما انبري يسوق الآيات تلو الآيات ،ويحشر معها الأحاديث ،والسائل قد يعرف هذا جيداً ،

والمسئول عنه قد يكون له شهوة في قلب السائل ، وسلطان علي نفسه ، كالتدخين مثلاً في أيامنا هذه ،فيلزم الداعية أن يبدأ بالأضرار النّاجمة عن التدخين ، وآثاره السيئة ،

ويقرر السائل في كل ذلك ، ثمّ يختم بالحكم الشرعي

وهكذا ..فهذا أدعي للقبول وعدم النفور .

المبحث الثاني

قبس من المنهج النبوي في تهذيب الصحابة بالشدة والغضب

قد يستهجن البعض هذا العنوان حتى ليجنح به الخيال فيقول إنك بذلك تصطدم مع النص وهو قوله تعالي: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(١)

ولا شك في أن هذه الآية ونظائرها في موضعها، ولكن الحقيقة تكمن في أن ة النبي – صلي الله عليه وسلم – في ن الأحيان لموقف رآه من أحد حابه كانت هي الرحمة بعينها، وكان غضبه لله تعالي وحرصاً منه علي الناس عامة وعلي أصحابه خاصة من ولوج النار، فإن جميع العقلاء يعترفون بأن للرحمة وقتها وللشدة وقتها، ولا يمكن الاستغناء عن أيتهما وقد قيل:

فقسا لتزدجروا ومن يك حازماً.... فليقسُ أحياناً علي من يرحم(٢)

لكن الخطر كل الخطر أن توضع الرحمة موضع الشدة أو العكس كما قال

(١)سورة آل عمران من الآية: ١٥٩ .

(٢)هذا البيت لأبي تمام انظر كتاب الزهرة – باب من التنخر لنفسه بالإغضاء١/١٩٩ .

القائل:

ووضع الندي في موضع السيف بالعلا.....! مضر كوضع السيف في موضع الندي(٣)

وإذا علمنا أن النفس الإنسانية تماماً كالطفل وهو لا يُترك هكذا هملاً إذا أردنا نجابته وسلامته، وإنما يُربَي ويُؤدب، ويُقوم ويُهذب، ويُؤخذ باللين والشدة كل في حينه، وأول الشدة معه أن يُفطم عن الرضاع ولهذا قيل:

والنفس كالطفل إن تُهمله شبَّ علي حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم(٤)

وقد ثبت أن النبي – صلي الله عليه وسلم – قال:

"إنما أنا لكم مثل الوالد لولده"(٥)

ويُؤكد هذا أيضا ما جاء في القرآن حيث يقول تعالي: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾(١)

(٣)لم أقف علي قائله وذكره صاحب الإحياء في باب فضيلة الرفق ٢/٢٧٤ .

(٤)هذا البيت للإمام البوصيري في بردة المديح .

(٥)سنن ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها – باب الاستنجاء بالحجارة والنهي عن الروث والرمة ١/٣٧٤ رقم ٣٠٩ . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصحيح ابن خزيمة – باب جماع أبواب الاستنجاء ١/١٤٧ رقم ٧٩ وقال الألباني في المشكاة حديث حسن ١/٧٥ رقم ٣٤٧

وقوله تعالي: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(٢)

فهو – صلي الله عليه وسلم – أحرص علي هذه الأمة من الوالد علي ولده ، بل من الواحد علي نفسه ، وقد بان لك أنه ما كان ليغضب لنفسه قط ، إنما كان غضبه لله ، تقول أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – : "...وما انتقم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله "(٣)

ثمّ إن هذه الشدة وهذا الغضب إما لترك مأمور به ،أو لفعل منهي عنه ، والمنهي عنه إما أن يكون دون الحد ، أو أن يكون حداً

وترك العقاب والملام الداخل في باب التأديب داع إلي فساد التدبير، وعائد بالضرر علي المعفو عنه ،وهذا ما يتزه عنه مقام النبوة .وإليك البيان :–

(١)سورة الأحزاب من الآية : ٦

(٢)سورة التوبة من الآية :١٢٨

(٣)البخاري – كتاب الأدب – باب قول النبي صلي الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا ١٩/ ٨٨ رقم ٥٦٦١ . عن عائشة رضي الله عنها .

أولاً – الغضب والشدة لترك مأمور به :

١- النموذج الأول :–

في شهر رجب للسنة التاسعة من الهجرة المباركة ،في فصل الصيف ،حيث تطيب الظلال ،وحيث أينعت الثمار ، إذا بمؤذن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يؤذن بالنفير والخروج في سبيل الله..،إنه الجهاد ذروة سنام الإسلام،ولم يكن النبي – صلي الله عليه وسلم – يخرج لغزوة إلا ورّي عنها بغيرها تعمية علي الأعداء لأن الحرب خدعة،إلا ما كان من هذه الغزوة ،إنه ذكر وجهته صراحة دون تورية..،إنه يريد تبوك علي تخوم الروم ليأخذ المسلمون أهبتهم لبُعد الشُقة ،ووعثاء السفر ولظي الشمس، ووهج الصحراء وجموع الروم..

وأخذ الجيش في المسير..هذا الجيش الذي عُرف بجيش العسرة ، وسمّي القرآن هذا الوقت بساعة العسرة، ولم يبقَ في المدينة إلا المنافقون والمعذرون، ومن ليس عليهم حرج من المؤمنين، وثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين هم كعب بن مالك،وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وهؤلاء لم يكن لهم عذر

للتخلف عن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – (١)

وقفل النبي – صلي الله عليه وسلم – وصحبه منتصرين من تبوك وجاء المنافقون فاعتذروا بأعذار باطلة ،وتعللوا بتعلات واهية ،فلم يؤنبهم النبي ولم يعنفهم،بينما جاء كعب وصاحباه فأعرض النبي عنهم مع أنهم لم يتعللوا ولم يذكروا إلا الصدق وأقروا بالخطأ،!

والإعراض هنا له معناه ومغزاه – لاسيما إذا كان من رسول الله – صلي الله عليه وسلم– وإنما يستشعر ذلك المؤمنون الصادقون،أمّا غيرهم فهيهات هيهات .

يقول كعب – رضي الله عنه – :

" ونهي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه .قال:فاجتنبنا الناس ، أوقال تغيروا لنا حتي تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا علي ذلك خمسين ليلة... " (٢).

إن الهجر علاج ناجع لكثير من الأخطاء ووسيلة شرعية للاستقامة علي المنهج المستقيم ألا تري إلي قول الله تعالي ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ (٣)

ولما شذّ كعب وصاحباه عن ركب الطاعة – ركب الجهاد – عاقبهم النبي – صلي الله عليه وسلم – بالهجر فلا كلام ولا سلام مع أحد من المؤمنين ،بل يصل الأمر إلي أبعد من هذا إمعاناً في التأديب إلي الأمر باعتزالهم نساءهم حتي لا يبقي أنيس ولا جليس .

وكان من نتيجة هذا الهجر أن يخرج كعب – وكان أشبّ من صاحبيه – فيحضر الصلوات مع النبي – صلي الله عليه وسلم – وصحبه فيسلم ولا يسمع رداً، ويقول في نفسه: هل حرّك النبي شفتيه بردّ السلام أم لا ؟ علّه يجد أملاً يتشبث به . يقول كعب : " ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت علي صلاتي نظر إليّ ،و إذا التفت أعرض عني .. " (٤)

---

(١)تراجع تفاصيل الغزوة في إمتاع الأسماع للمقريزي ص ٣٢٥ – ٣٥٢ والسيرة لابن هشام٢/٥١٥ – ٥٣١

(٢)البخاري في كتاب المغازي – باب حديث كعب بن مالك ١٣/٣٢٧ رقم ٤٠٦٦ ومسلم في كتاب التوبة – باب توبة كعب بن مالك وصاحبيه ١٣/٣٤٤ رقم ٤٩٧٣ .

(٣)سورة النساء من الآية :٣٤ .

(٤)سبق تخريجه ص ١٧ هامش ٣

وقد امتثل أصحاب النبي – صلي الله عليه وسلم – للنهي عن كلام أولئك الثلاثة .. يقول كعب : " حتي إذا طال عليّ ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتي تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدتك بالله هل تعلمن أني أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، قال :ففاضت عيناي...." (١) إنها دموع الندم علي الزلل ، والرجاء فيما عند الله ، فقد ضاق الكون الشاسع الرحب علي هذه النفس ، بل لقد ضاقت هذه النفس بصاحبها فأصبح في غربة ووحشة من كل شيء ، ولم يبقَ إلا باب الله الرحمن الرحيم، ولم يُخب الله رجاءهم، فلما أتموا خمسين صباحاً من هذا التأديب نزل القرآن بتوبتهم يقول سبحانه : ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) .

وما إن نزلت البراءة والتوبة من الله تعالي حتي سارع الصحابة لاحتضان إخوانهم الثلاثة ذلك الجزء الغالي من جسد الجماعة المؤمنة يزفون إليهم البشارة بالتوبة ، وعلي رأس هذا الجمع المبارك الرسول الكريم – صلي الله عليه وسلم – يقول كعب : "فلما سلّمت علي رسول الله – صلي الله عليه وسلم – قال وهو يبرق وجهه من السرور يقول :أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ...." (٣) (٤) هكذا مباشرة فلا مكان في قلب النبي وصحبه لملام أو عتاب لقد أخذ هؤلاء الثلاثة العقاب الرّادع ، وخرجوا من هذه المحنة كأنقي الذّهب الخالص إذا وضع في النّار،حتي ليترل فيهم قرآن يتلي ويُتعبد به إلي يوم القيامة، وكان من آثار هذا الدّرس أن قال كعب : "يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلي الله وإلي رسوله – صلي الله عليه وسلم – .... وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت .." (٤)

ويمكن للدّعاة إلي الله أن يستفيدوا مما سبق الفوائد التالية :

١– مشروعية الهجر لسبب ديني فقد نهي النبي – صلي الله عليه وسلم –

---

(١)نفس التخريج السابق .

(٢)سورة التوبة الآية :١١٨ .

(٣)نفس التخريج السابق .

(٤)نفس التخريج السابق ..

المسلمين عن كلام كعب وصاحبيه طوال تلك المدة .

٢- الفرق في معاملة النبي – صلي الله عليه وسلم – وسياسته مع المنافقين وسياسته مع أصحابه المؤمنين الصادقين ، لماذا اختار مع المنافقين اللين والصّفح ، واختار مع المؤمنين الصادقين الشدّة والعقوبة ؟؟!

والجواب : أن الشدّة والقسوة في هذا المقام مظهر للإكرام والتشريف وهو ما لا يستأهله المنافقون [١] .

٣- يقول ابن القيم رحمه الله :

" ومنها – أي فوائد وفقه غزوة تبوك – أن الإمام والمطاع لا ينبغي له أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور ، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب ، فإن النبي – صلي الله عليه وسلم – قال بتبوك :"ما فعل كعب ؟" ولم يذكر سواه استصلاحاً له ومراعاة ، وإهمالاً للقوم المنافقين "[٢] .

– وعلي ذلك فإن مما يجب علي دعاة المسلمين مراعاته إقالة عثرات الكرام ، والبحث عن الأعذار وقبولها ،سيما من كان له جهد في الدعوة ، فإن مما يؤسف له أن بعض المنتسبين إلي الدعاة يتحينون الفرص لينالوا من إخوانهم ،وما هذه أخلاق الإسلام وقد قال سبحانه : ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [٣] .

٤- ثمّ يقول رحمه الله : " ومنها معاتبة الإمام والمطاع أصحابه ومن يعز عليه ويكرم عليه ،فإنه –:صلي الله عليه وسلم – عاتب الثلاثة دون من تخلّف عنه ، وقد أكثر الناس من مدح عتاب الأحبة واستلذاذه والسرور به ، فكيف بعتاب أحب الخلق علي الإطلاق إلي المعتوب عليه ؟! ولله ما كان أحلي ذلك العتاب ، وما أعظم ثمرته وأجلّ فائدته ، ولله ما نال به الثلاثة من أنواع المسرات وحلاوة الرضا وخلع القبول ،وفي نهي النبي – صلي الله عليه وسلم – عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليل علي صدقهم وكذب الباقين ، فأراد هجر الصّادقين وتأديبهم علي هذا الذنب ، وأمّا المنافقون فجُرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر ... وهكذا يفعل الله سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم ، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بادني زلّة

[١] فقه السيرة للبوطي ص ٣٠٧ .

[٢] زاد المعاد لابن القيم – ٢٩/٢

[٣] سورة البقرة من الآية :٢٣٧

وهفوة،فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأمّا من سقط من عينه وهان عليه فإنه يخلي بينه وبين معاصيه ،.. [١] .

٥- في قول كعب : " حتي تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف "دلالة علي شؤم المعصية ، والكون كله مسبح لله تعالي ، وعلي قدر الذنب تكون الفجوة بين العبد وهذا الكون ، وبقدر الإيمان في القلب يكون الشعور بهذا الجفاء وهذه الوحشة ، أمّا كون الذين أغرقوا في المعاصي لا يستشعرون ذلك فلا يعني عدمها ، وإنما يعني موات القلب حتي إنه لا يستجيب للمنشطات وأنّي له ذلك ، يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [٢] .

وقال أيضاً :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [٣] .

وقديماً قالوا : فما لجرح بميت إيلام .

– النموذج الثاني : أخرج البخاري عن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رجل يا رسول الله :لا أكاد أدرك الصّلاة مما يطول بنا فلان ، فما رأيت النبي – صلي الله عليه وسلم – في موعظة أشدّ غضباً من يومئذ فقال : " أيها الناس : إن منكم منفرون ، فمن صلي بالناس فليخفف فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة " [٤] .

– الأمر بالرفق والرحمة بالناس من بديهيات الإسلام عندنا نحن المسلمين ، في كل الأحوال ومنها العبادات والشعائر ،لكن قد يشذّ عن هذا الأمر أحد الناس ، وهنا لابد من التقويم والتهذيب . وقد جاءت الشكاية إلي النبي – صلي الله عليه وسلم – من رجل أنه لضعفه لا يكاد يُتم الصلاة خلف فلان الإمام مما يطول في القراءة ، أو لا أكاد أصلي في الجماعة بل أتأخر عنها أحياناً من أجل الإطالة [٥]وقد اشتد غضب النبي – صلي الله عليه وسلم – حتي قال :" إن منكم منفرون " وأي

[١] زاد المعاد لابن القيم – ٣١،٣٠/٢ بتصرف يسير.

[٢] سورة الأنعام من الآية :٣٦ .

[٣] سورة ق الآية :٣٧ .

[٤] البخاري – كتاب العلم – باب الغضب في الموعظة والتعليم إذا رأي ما يكره – ١٦٠/١ رقم ٨٨ .

[٥] انظر فتح الباري ١٤٨/١ .

تنفير أكثر من أن يترك المسلم الجماعات في المسجد لأجل الإمام الذي ينسي أنه يصلي خلفه كل فئات المجتمع من الشيخ والشاب ،والصحيح والسقيم ،والفارغ والمشغول . وقد أراد النبي – صلي الله عليه وسلم – في حديث آخر أن يبين المنهج الأمثل للأئمة والدعاة الذين يتقدمون للصلاة بالناس أن يخففوا عليهم ما داموا في موضع الإمامة ، فإذا صلي الواحد منهم تطوعاً مع نفسه ليطول كيف شاء ، قال – صلي الله ليه وسلم – : " إذا صلي أحدكم ناس فليخفف فإن منهم الضعيف والسقيم و الكبير ، وإذا صلي أحدكم لنفسه فليطول ما شاء "(١) .

وقد أدرج الإمام مسلم – رحمه الله – هذا الحديث في باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام ، وقال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : " فيه دليل علي الرفق بالمأمومين وسائر الأتباع ، ومراعاة مصلحتهم ، وألا يُدخل عليهم ما يشق عليهم ، وإن كان يسيراً من غير ضرورة "(٢)

(١)مسلم – كتاب الصلاة باب أمر الأئمة .. ٤٩٤/٢ رقم ٧١٥ . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢)شرح النووي علي مسلم ٢١٨/٢ .

وقد بلغ من رحمة النبي – صلي الله عليه وسلم – ورفقه بالناس أنه قال : " إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأخفف من شدة وجد أمه به "(٣)

ويمكن للدعاة أن يستفيدوا مما سبق ما يلي :

١ – الأدب النبوي والخلق الرفيع للنبي – صلي الله عليه وسلم – حيث كان يستخدم غالباً أسلوب التعريض في التهذيب لا التصريح بحسب مقتضي الحال ، فيقول مثلا : إن منكم منفرون ، أو يقول : ما بال أقوام قالوا كذا .. وفي هذا مراعاة لمشاعر المسلمين ، ومحافظة علي وُدهم ، وهذا يتوقف علي معرفة الداعية و إلمامه بنفوس من حوله ، فما يتحمله شخص قد لا يتحمله آخر فيقع المحظور ، ولهذا فقد جاء في مسند الإمام أحمد – رحمه الله – قول النبي – صلي الله عليه وسلم – لمعاذ بن جبل : " ..... أفتان أنت يا معاذ .. "(٤) وقد

(٣)مسلم – كتاب الصلاة – باب أمر الأئمة .. ٣/٣ رقم ٧٢٣ . عن أنس رضي الله عنه .

(٤)أخرجه أحمد – باب مسند جابر بن عبدالله ٢٢٤/٢٨ رقم ١٣٦٧٥ .وقال الألباني في كتاب صفة الصلاة : باب صفة صلاة النبي – صلي الله عليه وسلم – إسناده جيد ١٠٦/١ .

شكاه أحد الأنصار لإطالته بهم في الصلاة .

٢– مسؤولية الأئمة عمن يصلي خلفهم مسؤولية جسيمة تحملهم علي تمام الصلاة وكمالها ، ومراعاة التخفيف علي من وراءهم حتى لا يؤدي إلي نفور الناس ، مع الوضع في الاعتبار أن رضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

٣– وكما أنه علي الإمام أن يراعي أحوال من خلفه كذلك علي الخطيب أن يراعي أحوال من تحته ، لأن من الخطباء من يصعد المنبر فينسي المرضي وكبار السن ، ويسترسل في الكلام حتي يجاوز الساعة ، ويا ليته يكتفي بخطبة الجمعة ، بل يقعد للدرس بعد الصلاة مباشرة ، وإني لأري أن هذا ليس من الفقه في شيء ، وحسبك أن تعلم أن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً .

٤ – يتخذ بعض الناس من الحديث الذي معنا ذريعة للتطاول علي الأئمة مما يحتم علي الأئمة التنبيه علي مفهوم التخفيف المراد من الحديث ، وأنه الإيجاز مع التمام ، وقد جاء في موضع آخر من السنة أن معاذاً – رضي الله عنه – كان يقرأ يوماً بسورة البقرة فأطال بالناس ، فأمره النبي – صلي الله عليه وسلم – أن يقرأ مثلاً بسبح اسم ربك ،والشمس وضحاها ،والليل إذا يغشي (١)

ثانياً : – الغضب والشدّة لفعل منهي عنه .

وهذا المنهي عنه إمّا أن يكون دون الحدّ أو أن يكون حداً .

ومن نماذج الأول وهو كون المنهي عنه دون الحد : –

النموذج الأول :

١– تحريم لبس الذّهب علي الرجال :

عن عبدا الله بن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – رأي خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال : "يعمدُ أحدكم إلي جمرة من نار فيجعلها في يده؟" فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله – صلي الله عليه وسلم – :خذ خاتمك انتفع بثمنه ، قال :لا والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله–صلي الله عليه وسلم–"(٢)

(١)ينظر صحيح البخاري – كتاب الأذان – باب من شكا إمامه إذا طوّل ١٢٢/٣ رقم ٦٦٤ . عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه .

(٢)رواه مسلم – كتاب اللباس والزينة – باب تحريم خاتم الذّهب علي الرجال ٤٦٢/١٠ رقم ٣٨٩٧ .

ومما يستفيده الدّعاة من هذا الموقف ما يلي :-

١– بيان مدي حرص النبي – صلي الله عليه وسلم – علي أمته وخوفه عليها فهو لا يألو جهداً في تقويمها وتهذيبها ولا أدلّ علي هذا الحرص من قوله : "إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدوابّ والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحُجُزِكم وأنتم تقحمون فيه ..." (١) .

٢– قال الإمام النووي : " في لحديث إزالة المنكر باليد لمن قدر عليه"(٢)

ويلاحظ هنا في قول الإمام النووي 'لمن قدر عليه "يعني قدرة مأمونة العواقب ، بحيث لا يترتب علي الإزالة أذي يضرّ بالناهي عن المنكر – ولا يصبر عليه – أو أن تُسبب إزالة المنكر منكراً أشدّ أو مساوٍ للأول ،

والملاحظ أيضاً أن النبي – صلي الله عليه وسلم – هنا بمثابة السلطان والحاكم إضافة إلي شرف النبوة.

٣– إنّ النبي – صلي الله عليه وسلم – هنا غيّرَ المنكر بيده ، مما يدل علي أنه قد سبق هذه المرحلة مرحلة التعليم والتعريف وهو قوله – صلي الله عليه وسلم – وقد رفع قطعتين من الذهب والحرير " هذان حل لإناث أمتي ومحرم علي ذكورها "(٣) .

٤– جمعه – صلي الله عليه وسلم – بين إزالة المنكر باليد – فنزع خاتم الذّهب من يد الرجل وطرحه علي الأرض – وبين تغيير المنكر باللسان حيث وعظ وزجر ، وخوّف من النار بقوله " يعمد أحدكم إلي جمرة من النار فيجعلها في يده "؟ .

٥– بيان مدي امتثال الصحابة لأوامر النبي – صلي الله عليه وسلم– وحبهم له حيث أبي هذا الصحابي أن يأخذ خاتمه للانتفاع به ، وهو أمر مشروع معللاً ذلك بقوله :" والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله – صلي الله عليه وسلم – " .

٢– النموذج الثاني :-

النهي عن الإساءة إلي الموالي والخدم.

– عن أبي مسعود الأنصاري – رضي الله عنه – قال :كنت أضرب

(١)رواه مسلم – كتاب الفضائل – باب شفقته صلي الله عليه وسلم علي امته ٣٩٨/١١ رقم ٤٢٣٤ . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢)انظر شرح النووي علي مسلم ١٧٩/٧ .

(٣)أخرجه أحمد في مسنده – باب مسند علي بن أبي طالب ٢١٧/٢ رقم ٧١١ وقال الشيخ الألباني :حديث حسن صحيح – انظر السلسلة الصحيحة ٦٦١/١ رقم ٣٣٧

غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً : " اعلم أبا مسعود : لله أقدر عليك منك عليه " فالتفتُ فإذا هو رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : " أما لو لم تفعل للفحتك النّار أو لمستّك النار "(١) .

النفس البشرية كثيراً ما تجنح إلي التسلط لاسيّما إذا وُجدت مقوماته ودواعيه،لكن شتّان ما بين نفس إذا ذُكرت بالله ذكرت فاستغفرت ورجعت ،وبين أخري إذا ذُكرت بالله كفرت وزاد طغيانها ، وهذا ولا شك واقع في دنيا الناس .

وفي هذا الحديث يتملك الغضب أبا مسعود الأنصاري فيضرب مملوكه ، وقد يكون لسبب لا يستوجب الضرب ،ويكفي فيه الملام والعتاب ، ثمّ وما ذنبه في كونه مملوكاً؟!.. إنه قطعاً لم يختر ذلك ، ولا له فيه يد ،إنّما هي تقلبات الزمن ، وعاديات الدهر ، وصروف الليالي ،فالناس كلهم لآدم ، ولا تفاضل ولا امتياز إلا بالتقوي والعمل الصالح .، أما وقد صار أمر أخيك إليك فلتتقِ الله فيه ، ويجيء صوت النبي – صلي الله عليه وسلم – خلف أبي مسعود ليذكره بهذه الحقيقة التي ما كان ينبغي لها أن تغيب عن ذاكرة المؤمن :" لله أقدر عليك منك عليه "

وقد كانت هذه الكلمات القليلة في مبناها،العظيمة في معناها بمثابة عصا المؤدب ، فقد أرجعت إلي أبي مسعود صوابه، وأثابته إلي رشده ،فما كان أسرع أن قال : هو حر لوجه الله ..

إنها الإنابة السريعة إلي الله تعالي ، فلا تثاقل ولا تباطؤ ، ولا تلكؤ ولا مراجعة ، وقد بين له النبي – صلي الله عليه وسلم – خطورة موقفه لو لم يبادر باعتاق غلامه بأنه سيكون عُرضة للفح جهنم ،.

ويمكن للدعاة الاستفادة مما سبق بما يلي :

١– الدعوة إلي الإحسان العام إلي جميع مخلوقات الله تعالي والرحمة بهم ، وحسن معاملة الرؤساء لمرؤسيهم .

٢– الاستفادة من أسلوب الترهيب في مخاطبة العصاة والمذنبين ، وهو أسلوب يؤتي ثماره لو أحسن استخدامه في التوقيت المناسب مع مراعاة مقتضي الحال ، مع الوضع في الاعتبار أن أهواء الناس متباينة ، فمنهم

(١)مسلم – كتاب الأيمان – باب صحبة المماليك ٤٧٤/٨ رقم ٣١٣٦ .

من يُجدي معه الترهيب ، ومنهم من يُجدي معه الترغيب ، ومنهم من يُجدي معه الترهيب والترغيب معاً ، وهو غالب منهج القرءان الكريم ومن ذلك قوله تعالي : ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

٣- بيان عظمة الإسلام في الإحسان إلي الموالي والأرقاء ، والعمل علي تحريرهم وإعتاقهم ،لمواجهة حملات المستشرقين وأذنابهم ودعواهم الباطلة ن الإسلام يعمل علي زيادة عدد بيد..!

وأين هذه الدعوة من آيات القرءان المنادية بإعتاق الرقاب ، وجعل ذلك كفارة لكثير من الأخطاء ، (٢) ناهيك عن جعل سهم من أموال الزكوات لهذا الشأن(٣) وأحاديث النبي – صلي الله عليه وسلم – خير شاهد

(١)سورة فصلت من الآية : ٤٠

(٢)إشارة إلي كفارة القتل الخطأ سورة النساء الآية: ٩٢ ،وكفارة اليمين المنعقدة – سورة المائدة الآية :٨٩ .،وكفارة الظهار – سورة المجادلة الآية :٣ .

(٣)إشارة إلي مصارف الزكاة في سورة التوبة الآية: ٦٠ .

عملي علي هذا . وتأمل هذا المشهد القادم لترتفع به جباه المؤمنين ، وترغم أنوف المنافقين ..

روي مسلم عن زاذان أن ابن عمر – رضي الله عنهما – دعا بغلام له فرأي بظهره أثراً فقال : أوجعتك ؟ فقال لا ، قال : فأنت عتيق .قال ثم أخذ شيئا من الأرض فقال :ما لي فيه من الأجر ما يزن هذا إني سمعت رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يقول : " من ضرب غلاما له حداً لم يأته أو لطمه فإن كفارته أن يعتقه .. " (٤).

– وعن سويد بن مقرن أنه قال :"..... لقد رأيتني وإني لسابع إخوة لي مع رسول الله – صلي الله عليه وسلم- وما لنا خادم غير واحد، فعمد أحدنا فلطمه ،فأمرنا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – أن نعتقه .." (٥).

ولم يقف الأمر في الإسلام في الدعوة إلي الإحسان إلي الخدم والمماليك علي كف الأذي بالضرب ، بل مجرد التطاول بالسباب حرّمه أيضاً ، فعن المعرور بن سويد قال : رأيت علي أبي

(٤)مسلم – كتاب الأيمان – باب صحبة المماليك ٤٦٨/٨ رقم ٣١٣٠

(٥)رواه مسلم – كتاب الأيمان – باب صحبة المماليك ٤٧٢/٨ رقم ٣١٣٤ .

ذر برداً وعلي غلامه برداً ،فقلت :لو أخذت هذا فلبسته كانت حُلّة ،وأعطيته ثوباً آخر ،فقال : كان بيني وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها ، فذكرني إلي النبي – صلي الله عليه وسلم – فقال لي : " أسابيت فلاناً؟ "قلت نعم ، قال: " أفنلت من أمه ؟ "قال:" إنك امرؤ فيك جاهلية " قلت : علي حين ساعتي هذه من كبر-السن ؟ قال : " نعم هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ،فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه " (١).

وقد كان أبوذر – رضي الله عنه – من قبيلة غفار ،هذه القبيلة التي كان يغلب عليها طابع السطوة والقوة ، والإنسان كما قالوا هو ابن بيئته ، فكأنه وبعد إسلامه لم تزل عالقة به شائبة من شوائب ورواسب هذه القبيلة ، وقد ذكرت بعض الروايات أنه تلاحي مع بلال الحبشي ، ولم يكن بلال يوماً مملوكاً لأبي ذر فقد أعتقه أبوبكر – رضي الله عنهم جميعاً – ولكنّ أبا ذر عيّره أو سبّه بأمه السوداء ،

(١)رواه البخاري – كتاب الأدب – باب ما ينهي من السباب ٤٨١/١٨ رقم٥٥٩٠ .

وما إن سمع أبو ذر من النبي – صلي الله عليه وسلم – ما سمع حتي راح يزيل ما عساه قد علق بنفسه من رواسب الجاهلية ، فوضع خده علي التراب مقسماً أنه لن يرفعه حتي يرضي بلال ، وقد رضي .

ولا يخفي بعد هذا الموقف المعدن الأصيل لهؤلاء الأصحاب فما هي إلا كلمات قلائل حتي يخبت وينيب إلي الحق دون مكابرة أو إصرار وهكذا يجب أن يكون شأن المسلم دائماً.

٣- النموذج الثالث :

عن أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – قال : بعثنا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – في سرية فصبحنا الحُرُقات(٢) من جهينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك ،فذكرته للنبي – صلي الله عليه وسلم – فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم -: " قال لا إله إلا الله وقتلته ؟ " قال : قلت يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح ،قال : " أفلا شققت عن قلبه حتي تعلم أقالها أم

(٢)الحُرُقات: بضمتين وقاف وآخره تاء فوقها نقطتان، موضع.انظر معجم البلدان لياقوت ٧٣/٢ .

لا ؟ " فما زال يكررها عليَّ حتي تمنيت أني أسلمت يومئذ " (١).

وهذا الحديث يخص حِبَّ رسول الله وابن حِبه أسامة بن زيد ، فهو قد قدم من سرية كانت تجاهد في سبيل الله ، لكن حدث فيها أمر في النفس منه شيء ، فأخبر النبي – صلي الله عليه وسلم – أنه أدرك رجلاً من المشركين حتي إذا استمكن منه قال الرجل :لا إله إلا الله ،لكن سبق السيف العزل فقتله ،وقد كان وقع الخبر علي النبي – صلي الله عليه وسلم – شديداً فإذا هو يعنفه ويقول : " قال لا إله إلا الله وقتلته ؟ " يجيب أسامة معتذراً ومتأولاً أنه إنما قال ذلك عائذاً من السيف ، خائفاً من القتل ولكن مثل هذه الأمور لا تنفع فيها التكهنات ، أو تجدي فيها التأويلات .. إنما إزهاق نفس ، وإراقة دم ، والمسألة تتعلق بالقلب والوجدان ، قال – صلي الله عليه وسلم – : " أفلا شققت عن قلبه حتي تعلم أقالها أم لا ؟ " وهو استفهام توبيخي إنكاري، إذ من ذا الذي يمكنه الاطلاع علي خلجات القلوب أو مكنوناتها غير الله ربِّ العالمين؟!

وبينما تنقطع معاذير أسامة لا يفتأ الرسول– صلي الله عليه وسلم – يكرر :كيف بك بلا إله إلا الله ؟ حتي قال أسامة : فما زال يكررها عليَّ حتي تمنيت أني أسلمت يومئذ ، يعني لم يكن أسلم قبلها وأسلم اليوم ، حتي يجبّ الإسلام ما قبله ،اتقاءً لغضب رسول الله – صلي الله عليه وسلم –

ويستفيد الدعاة والمسلمون عموماً من هذا الموقف :

– الأخذ بظواهر الناس وترك بواطنهم إلي الله تعالي ، وعدم الحكم علي الناس بالتخمين أو التخريص فيما يتعلق بأعمال القلوب ، وقد كان النبي – صلي الله عليه وسلم – يغضي عن المنافقين مع علمه بنفاقهم ، ويرضي منهم بظاهر أعمالهم.

إن أسهل شيء يتداوله كثير من الناس اليوم القول بأن فلاناً منافق أو مداهن أو مرائي أو ...أو ... وغير ذلك من الاتهامات التي تتعلق بسرائر الناس.

وقد قال أحد السلف :- إني حُرمت قيام الليل أربعين ليلة لذنب أذنبته ، رأيت رجلاً منكسراً فقلت في نفسي إنه مُراء (٢) ولعله قد بان الآن

(١)رواه مسلم – كتاب الأيمان – باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ٢٥٨/١ رقم الحديث ١٤٠

(٢)انظر إحياء علوم الدين – باب فضيلة قيام الليل ٣٥٦/١ .

السر في حرمان كثير من الأمة للواجبات فضلاً عن النوافل وغيرها .

– بيان حرمة الدماء ، وأن المسلم لا يزال في برحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً ،وإذ قد علمت النكير الشديد من رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لأسامة رضي الله عنه – في قتله رجلاً متأولاً، والتأول هنا قائم ، ومظنة التعوذ من القتل واردة ،لأنه في ميدان القتال ، فما ظنك بمن يقتل المسلمين الآمنين معتمدا علي تأويلات واضحة البطلان ، وقد عمّت هذه البلوي معظم أقطار العالم الإسلامي ،حتي طالت بلاد الحرمين الشريفين ،ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن نماذج الثاني وهو كون المنهي عنه حدّاً : –

غضبه وكراهيته – صلي الله عليه وسلم – الشفاعة في الحدّ .

شرع الله سبحانه الحدود حماية وصيانة للمجتمع من الانحراف والفوضي، وكل من هذه الحدود يناسب الجرم المقترف بلا إفراط أو تفريط ،لأن المشرع هو خالق البشر وهو العليم بما يصلحهم وما يفسدهم ، كما قال سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

(١)سورة الملك الآية: ١٤ .

وإقامة الحدود هي من اختصاصات أولي الأمر دون آحاد الرعية ،

وقد أقام النبي – صلي الله عليه وسلم – حدّ الرجم علي الزاني المحصن (٢) عندما جاء مقراً بما فعل ، وكذا علي المرأة الغامدية (٣) ولم تأخذه بهما رأفة في دين الله .

وفي الصحيحين تروي أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – فتقول :إن قريشاً أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ومن يجتريء عليه إلا أسامة بن زيد حبّ رسول الله – صلي الله عليه وسلَم – ؟ فكلم رسول الله – صلي الله عليه وسلم – فقال : " أتشفع في حدّ من حدود الله ؟ " ثم قام يخطب فقال : " يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف

(٢)هو ماعز بن مالك كما في البخاري – كتاب الحدود – باب هل يقول الإمام للمُقر لعلك... ٩٩/٢١ رقم ٦٣٢٤ .عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٣)انظر صحيح مسلم – كتاب الحدود – باب من اعترف علي نفسه ٦٨/٩ رقم ٣٢٠٧ .عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنهما.

فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد – صلي الله عليه وسلم – سرقت لقطع محمد يدها .. "(١)

ومما يستفاد من هذا الحديث :

– بيان فضل أسامة بن زيد وأنه كان مدللاً عند رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وهو معني الاجتراء هنا علي ما ذكره شرّاح الحديث(٢)

– إنه لا شفاعة في الحدود مطلقاً لأنها متعلقة بحق الله سبحانه ، وهذا فيما إذا رُفع الأمر إلي السلطان ، أمّا قبل ذلك فيجوز(٣)

إنّ بعض الحدود كانت في التشريعات السابقة علي الإسلام ، وأن إقامتها علي السُوقة والضعفاء دون إقامتها علي الوجهاء والأقوياء كان سبباً في ضلالهم ، والضلال بمعناه الواسع قد يعني التخبط والحيرة وعدم التوفيق ، والتيه في الأرض ، وهذه المعاني حتماً تؤدي إلي الهلاك والضياع ، وليت شعري إذا كان هذا هو الحال – إذا أقيمت الحدود علي البعض ولم تقم علي البعض الآخر ،فماذا لو لم تقم بالكلية ؟ بل اتهمت بالتخلف والرجعية ؟!

إنه يجب تربية جيل لا يعرف المحاباة في الحق ، ولا يقبل فيه شفاعة الشافعين .

ويريد النبي – صلي الله عليه وسلم – أن يبرهن للعالمين أن الأنساب أو الأحساب لا تحول دون تنفيذ شريعة الله تعالي فيقسم لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها !

ومن في العالمين يرقي إلي هذا النسب ؟؟ وفاطمة هذه هي ريحانة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – لكنه الحق.. والحق أحق أن يتبع .

(١)رواه البخاري – كتاب الحدود – باب كراهية الشفاعة في الحد ٤٩/٢١ رقم ٦٢٩٠ .

(٢)انظر شرح النووي علي مسلم ١٠٧/٦ رقم ٣١٩٦ .

(٣)انظر فتح الباري ٢٠٢/١٩ .

المبحث الثالث

قبس من المنهج النبوي في التحذير من شره النفس والحث علي القناعة :

جُبلت النفس الإنسانية علي حبّ الخير والاستزادة منه ، وقد يسترسل الإنسان في هذه الزيادة فيقع في الحرام ، فيأخذ ما ليس من حقه ، ويمنع الحق الذي عليه ،

والله تعالي لا يترك الإنسان سديً دون منهج يقومه ، فجاء القرءان ليكشف ويرشد هذه الطبيعة الإنسانية في كثير من آياته ، فيقول سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا..﴾ (١) ويقول سبحانه : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٢) وغيرها من الآيات .

ورسم النبي – صلي الله عليه وسلم – المنهج العملي للقناعة والرضا ، والحد من شره النفس وتطلعها ، ومن النماذج علي ذلك ما يلي : –

١– النموذج الأول :–

روي مسلم عن حكيم بن حزام – رضي الله عنه – أنه قال : سألت النبي – صلي الله عليه وسلم – فأعطاني ثمّ سألته فأعطاني ثمّ قال : " إنّ هذا المال خَضِرة حُلوة ، فمن أخذه بطيب نفس بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلي " (٣)

يقول الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث : " وفيه الحث علي التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف وإن كان قليلا ، والإجمال في الكسب ، وأن لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه فإنه لا يُبارك له فيه "(٤)

وفي الحديث تشبيهان لهما بالغ الدلالة في الزهد فيما في يد الغير :

أولهما :– قوله – صلي الله عليه وسلم – : " وكان كالذي يأكل ولا يشبع " ويا لها من صورة مقززة تعافها النفوس الصحيحة ، إذ ما الفائدة من الطعام إذا كان لا يؤدي إلي الشبع أو يسدّ جوعاً ؟!.. هكذا الذي يتطلع إلي المال بشرهٍ مهما كان عنده يشعر أنه في فاقة وضنك من العيش ولهذا فقد جاء

(١)سورة الفجر الآية: ٢٠

(٢)سورة العاديات الآية : ٨ .

(٣)مسلم – كتاب الزكاة – باب أن اليد العليا خير من اليد السفلي ٢٣٦/٥ رقم ١٧١٧ .

(٤)شرح النووي علي مسلم ٤٨٦/٣ رقم ١٧١٧.

في حديث آخر : " ليس الغني عن كثرة العرض،ولكن الغني غني النفس "(١)

وثانيهما : - قوله صلي الله عليه وسلم"واليد العليا خير من اليد السفلي" .

فقد شبّه اليد التي تكد وتكدح وتعمل ثم تنفق وتتصدق بالعليا ، واليد التي تمتد لتأخذ دون جهد بالسفلي ،وقد عبّر هنا بالجزء وأراد الكل ، فليست اليد وحدها هي العليا أو السفلي وإنما صاحبها ، فمن ذا الذي يرضي لنفسه بالدون من الأمر ؟

- وهذه معانٍ جليلة ، وفوائد عظيمة يجب أن يتنبه إليها الدعاة إلي الله تعالي فيأخذون بها أنفسهم أولاً، ثم يدعون إليها الآخرين .

- وقد كان من أثر هذا الدرس في نفس الصحابي حكيم بن حزام - رضي الله عنه - أنه قال : " يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتي أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر - رضي الله عنه - في خلافته يدعو حكيماً إلي العطاء فيأبي أن يقبله منه ، ثمّ إن عمر - رضي الله عنه - دعاه ليعطيه فأبي أن يقبل منه شيئاً "(٢) .

إنها استجابة فورية لتوجيه رسول الله - صلي الله عليه وسلم - وعزيمة صادقة ليس فقط عما فيه شبهة، ولكن عن المباح أيضاً .

ثم تأمل الرواية التالية :يقول حكيم بن حزام " قلت فوالله لا تكون يدي بعدك تحت يد من أيد العرب " ..

أرأيت إلي الهمة العالية إنه فطن للدرس النبوي فلا يرضي بعد ذلك إلا أن يكون هو الأعلي وهذه الصفة من أخص صفات المؤمنين قال تعالي : ﴿ .... وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

٢- النموذج الثاني :-

في شهر رمضان للسنة الثامنة من الهجرة دخل النبي - صلي الله عليه وسلم - مكة فاتحاً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وقد كان من نبأ هوازن في حُنين ما كان ، وغنم المسلمون غنيمة ليس لهم بمثلها عهد ،ولما كان النبي -

(١)مسلم كتاب الزكاة باب ليس الغني عن كثرة العرض ٢٦٧/٥ رقم :١٧٤١عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٢)البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستعفاف عن المسألة ٣٢١/٥ رقم :١٣٧٩ .

(٣)سورة آل عمران من الآية : ١٣٩ .

صلي الله عليه وسلم - بالجعرانة قسّمَ الغنائمَ ، فخصّ من دخلوا في الإسلام بأخرة - وهم أهل مكة والموسومون بمسلمة الفتح أو الطلقاء - بمزيد من الغنائم والأعطيات ، يتألف بها قلوبهم علي الإسلام ، فوجدَ بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك وقالوا : يغفر الله لرسول الله ،يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟

فبلغ ذلك رسول الله - صلي الله عليه وسلم - ،فأرسل إليهم فجمعهم في صعيد واحد ليس فيهم غيرهم ، ثم قام فيهم خطيباً فكان من قوله : " يا معشر الأنصار ،ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟" وهم يجيبونه في كل ذلك قائلين : بلي.. لله ولرسوله المنّ والفضل ، ثمّ قال : " ألا تُجيبوني يا معشر الأنصار ؟" قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله ،لله ورسوله المنّ والفضل .

فقال - صلي الله عليه وسلم - : " أما والله لو شئتم لقلتم فلصدَقتم ولصُدقتم :أتيتنا مُكذَّباً فصدقناك ،ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك " فصاحوا بل المنّ علينا لله ورسوله .

ثمّ قال - صلي الله عليه وسلم -: " أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لَعَاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلي إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير إلي رحالهم ،وترجعوا(١) برسول الله إلي رحالكم ؟ فوالله لَما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، والذي نفسُ محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شِعب الأنصار ، وإنكم ستلقون أثَرة من بعدي فاصبروا حتي تلقوني علي الحوض ،اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .فبكي القوم حتي أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسماً وحظاً " (٢).

(١)قد يجد القاريء في بعض الروايات " وترجعون "هكذا بإثبات النون وفي بعضها بحذفها كما في هذه الرواية التي معنا " وترجعوا " فلا يجد علي في نفسه فالوجهان صحيحان ، فبإثباتها علي الاستئناف،وبحذفها علي النصب بأن عطفاً علي يذهب

(٢)يُراجع صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة الطّائف في شوّال ٢١٩/١٣ - ٢٢٨ أرقام : ٣٩٨٥ - ٣٩٨٩ .، وصحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب فتح مكة ٢٤٩/٩ رقم: ٣٣٣١ ، ومسند الإمام أحمد - باب مسند أبي سعيد الخدري ٣٥٠/٢٣ رقم :١١٣٠٥ .، والسيرة النبوية لابن هشام ٤٩٧/٢ ، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢٢١/٢ .

إلي هنا وانتهي الموقف ..

ولله ما أروعه من موقف ، وأيم الله أنني ما مَن مرة أطالع فيها هذا الموقف في كتب السنّة أو كتب السيرة إلا وأثار شجوني لكأنما أقرؤه لأول مرة ، لما فيه من روعة وجلال تجلّ عن الوصف ، ويقصر البيان عن الإفصاح عن مكنون الجَنان .

ومن الدروس التي يمكن للدعاة أن يفيدوا بها من هذا الموقف ما يلي:

أولاً: التنبيه علي كيد الشيطان والتحذير من اتباع خُطُواته :

ما كان أحد يتخيل أن تتسلل مثل هذه الهواجس إلي قلوب الأنصار ، وهم الذين تبوؤا الدار والإيمان فيجدوا علي نبيهم – صلي الله عليه وسلم – في أنفسهم أنه يعطي قومه ويتركهم !

الأنصار الذين قيل فيهم : إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع

وهم الذين قال فيهم حسان بن ثابت – رضي الله عنه – :

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ..... أو وازنوا أهل مجد بالندي منعوا

أعفة ذُكرت في الوحي عفتهم ..... لا يطمعون ولا يرديهم طمع (1).

---

(1)انظر السيرة النبوية لابن كثير ٨١/٤

ولكن وكما قال النبي – صلي الله عليه وسلم – : " ... إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم .. "(2)

ولهذا فقد حذّر الله المؤمنين من مجرد اتباع خطواته فقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...﴾ (3).

ثانياً : المبادرة إلي تجلية الأمور وكشف الحقائق :

إنّ الاختلاف سنّة من سنن الله في الخلق لا تتبدل ولا تتحول ، فالناس ليسوا في الإيمان سواء ، ولا في قوة الفهم والإدراك سواء ، فما قد يكون بدهياً عند إنسان قد يستغلق فهمه عند آخر ، فإذا ما غُمّ أمر علي بعض الناس ، أو تعذر عليهم إدراك أبعاده ومراميه ، تعيّن علي المُقدّم في أمر الدين أو الدنيا أن يبادر إلي تجلية هذا الأمر ، حتي لا يقع الناس في حيرة من ناحية ، ويقعوا فيه هو من ناحية أخري .

– وإذا كان هذا القبيل من الأنصار – وهم من هم – إيماناً وتُقي

---

(2)البخاري – كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده :٥٩/١١ رقم الحديث ٣٠٣٩ .عن صفية بنت حيي أم المؤمنين رضي الله عنها.

(3)سورة النور من الآية : ٢١ .

يسلموا من وساوس الشيطان ،تجاه النبي – صلي الله عليه وسلم – وهم يعلمون يقيناً أنه المعصوم الذي لا ينطق عن الهوي ، فما بالنا بمن دونهم ودونه من البشر ؟ .

– ولم يُرجيء النبي – صلي الله عليه وسلم – تجلية هذا الأمر إلي أن يرجع إلي المدينة ، لأن من الأمور أمور لا يجوز فيها الإرجاء ، فمن يدري فقد يتنامي هذا الهاجس وهذه القالة ، وينفخ فيها الشيطان حتي تكون فتنة لا يعلم إلا الله مداها .

– وقد أحاط النبي – صلي الله عليه وسلم – الأمّة بسياج من الأمان في مثل هذه الأمور ، فقال – صلي الله عليه وسلم – : " دع ما يريبك إلي ما لا يريبك "(1)

وقال أيضاً : " ..... فمن اتقي الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " (2)

وفي هذا دعوة للمسلم عامة وللداعية إلي الله – الذي ينظر الناس إليه نظر الطير إلي اللحم – خاصّة أن لا

---

(1)البخاري – كتاب البيوع – باب تفسر المشبهات ٢٠٣/٧ .

(2)مسلم – كتاب المساقاة – باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٢٩٠/٨ رقم :٢٩٩٦ عن النعمان بن بشير .

يقف مواقف الشبهات ، ليعمل علي براءة دينه وسلامته من الشبهة من ناحية ، ويعمل علي براءة عرضه فلا يتطاول عليه السفهاء بالغيبة من ناحية أخري .

وقد ورد عن زين العابدين بن الحسين – رضي الله عنهما – قوله : " إياك وما يسبق إلي القلب إنكاره ، وإن كان عندك اعتذاره ، فرُبّ سامعٍ نُكراً لا تستطيع أن تسمعه عذراً "(3)

– وقد وصل الإسلام بالمسلم في هذا المنحي غايته وكماله ، فلا يُحب أن تقال عنه كلمة تنال من مشاعره ، حتي وإن كان هذا مما يعتاده بنو آدم ، فعن أم المومنين عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت :قال صلي الله عليه وسلم – قال : " إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ بأنفه ثم لينصرف "(4) وذلك لئلا يُقال عنه أحدث . وقد يندرج ما نحن بصدده تحت القاعدة الأصولية– قاعدة سد الذرائع – وهي تعني هنا إيصاد أبواب الفتن علي اختلاف أنواعها ، وقد روي مسلم في صحيحه عن أمّ

---

(3)انظر الكشكول ٣٤٧/١ .

(4)سنن أبي داود– باب استئذان المحدث الإمام ٣٢٥/٣ رقم ٩٤٠ وقال الألباني حديث صحيح – مشكاة المصابيح٢٢٠/١ رقم ١٠٠٧ .

المؤمنين صفية – رضي الله عنها – قالت : " كان النبي – صلي الله عليه وسلم – معتكفا فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثمّ قمت لأنقلب فقام معي ليقلبني – وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد – فمرّ رجلان من الأنصار ،فلما رأيا النبي – صلي الله عليه وسلم – أسرعا فقال النبي – صلي الله عليه وسلم – " علي رسلكما إنما صفية بنت حيي " فقالا :سبحان الله يا رسول الله ! قال :" إن الشيطان يجري من الإنسان مجري الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ، أو قال شيئاً "(١) يقول الإمام النووي – رحمه الله – وفي الحديث فوائد منها :

– بيان كمال شفقته – صلي الله عليه وسلم – علي أمته ،ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(٢) فخاف أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكا،فإن ظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع .

– وفيه استحباب التحرز من التعرض لسوء الظن ، وطلب السلامة والاعتذار بالأعذار الصحيحة ، وأنه متي فعل ما قد ينكر ظاهره مما هو حق وقد يخفي ، أن يبين حاله ليدفع ظن السوء .– وفيه الاستعداد للتحفظ من مكايد الشيطان ... "(٣)

وقد رُويَ هذا الحديث من أكثر من وجه ،قال صاحب الفتح :

" والمحصل من هذه الروايات أن النبي – صلي الله عليه وسلم – لم ينسبهما إلي أنهما يظنان به سوءاً لما تقرر عنده من صدق إيمانهما ، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين ، فقد يفضي بهما ذلك إلي الهلاك ، فبادر إلي إعلامهما حسماً للمادة ،وتعليماً لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك كما قال الإمام الشافعي – رحمه الله – إنما قال لهما ذلك لأنه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة ، فبادر إلي إعلامهما نصيحة لهما قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئاً يهلكان به .

وفي الحديث التحرز من التعرض لسوء الظن ، قال ابن دقيق العيد : وهذا

(١)مسلم – كتاب السلام – باب أنه يستحب لمن رُئي خالياً بامرأة وكانت زوجته ١٥١/١١ رقم ٤٠٤١ ،والبخاري في كتاب الاعتكاف – باب زيارة المرأة زوجها في الاعتكاف ١٧٨/٧ رقم ١٨٩٧ ،وفي كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده ٥٩/١١ رقم ٣٠٣٩ .

(٢)سورة الأحزاب من الآية : ٤٣ .

(٣)شرح النووي علي مسلم ٣١١/٧.

متأكد في حق العلماء ، ومن يقتدي به فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم ، وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلي إبطال الانتفاع بعلمهم"(١).

عود علي بدء

لقد وقف النبي – صلي الله عليه وسلم – خطيباً بين جموع الأنصار فذكّرهم آلاء الله عليهم وهم يقولون – وقد بلغ الحياء منهم مبلغه – لله ولرسوله المنّ والفضل ، ثمّ أراد أن يواسيهم فعدد مناقبهم ، وأنهم طالما نصروا الله ورسوله.

٢- ثمّ هو – صلي الله عليه وسلم – يخاطبهم بيا معشر الأنصار في ثنايا كلامه، ولله ما أجمله من أسلوب .. إنه لقمين أن يصل إلي شغاف القلوب لا تحجبه حواجز ،ولا تحول دونه عوائق .

ثمّ كان هذا العتاب الرقيق الذي اقشعرت له الجلود ، ولانت به القلوب ، وذرفت منه العيون حتي أخضلت اللحى ، "أوجدتم " من الحزن " في أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلي إسلامكم" ؟

واللعاعة هو نبت أخضر ينبت في الصحراء قليل البقاء ، تأكله الإبل لا يسد جوعاً ،ومنه قولهم : الدنيا ساعة ومتاعها لعاعة (٢)

– وانظر كيف شبّه – صلي الله عليه وسلم – ما أعطاه هؤلاء الطلقاء من مئات الإبل والشياه بشيء قليل لا قيمة له ، ليزهدهم في الدنيا ويرغبهم فيما عند الله تعالي ، وهب أنه مال الأرض وكنوزها جميعاً أعطاها هؤلاء فرجعوا به إلي رحالهم ودورهم ، ورجعتم أنتم برسول الله – صلي الله عليه وسلم – إلي رحالكم ودياركم فهل يستويان مثلاً ؟!

– ثمّ دعا النبي – صلي الله عليه وسلم – للأنصار وأبنائهم وأحفادهم ، كل ذلك في مشهد ملؤه المشاعر الجيّاشة ، والندم علي ما بدر وهم يقولون – وقد علا نحيبهم – رضينا بالله ورسوله قسماً وحظاً فالدنيا هينة في جنب رضاك .

يقول العلامة ابن حجر–رحمه الله–

" وفي الحديث فوائد :

– إقامة الحجة علي الخصم وإفحامه بالحق عند الحاجة إليه .

(١)فتح الباري ٣٢٦/٦ رقم ١٨٩٤ .

(٢)انظر :أساس البلاغة – باب لعن ٤٢٤/١ والنهاية في غريب الأثر ٥٠٧/٤ .

– إنّ الكبير ينبه الصغير علي ما يغفل عنه ، ويوضح له وجه الشبه ليرجع إلي الحق .

– وفيه المعاتبة والاستعطاف ، والاعتذار والاعتراف .

– وفيه تسلية من فاته شيء من الدنيا مما حصل له من ثواب الآخرة .

– وفيه تقديم جانب الآخرة علي الدنيا ،والصبر عما فات منها ليدخر ذلك لصاحبه في الآخرة والآخرة خير وأبقي "[1]

أثر المنهج النبوي في تهذيب الأنصار

نقل صاحب الفتح عن ابن القيم قوله :

" ولما شرح لهم – صلي الله عليه وسلم – ما خفي عليهم من الحكمة فيما صنع رجعوا مذعنين ،ورأوا أن الغنيمة العظمي ما حصل لهم من عود رسول الله – صلي الله عليه وسلم – إلي بلادهم فسلوا عن الشاة والبعير ، والسبايا من الأنثي والصغير ، بما حازوه من الفوز العظيم ، ومجاورة النبي الكريم لهم حياً وميتاً ، وهذا دأب الحكيم يعطي كل أحد ما يناسبه "[2] .

(١)فتح الباري ١٣٩/١٢ رقم ٣٩٨٥ .

(٢)المرجع السابق نفس الصفحة

وهكذا انقشعت هذه السحابة لتسفر عن المعدن الأصيل لهؤلاء الأنصار فانقلبوا بنعمة من الله وفضل إلي طيبة المنورة معهم نبيهم – صلي الله عليه وسلم – راضية أنفسهم ، مطمئنة قلوبهم بما حازوه من فضل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

٣– النموذج الثالث:

عن أبي حميد الساعدي – رضي الله عنه – قال :استعمل النبي – صلي الله عليه وسلم – رجلاً من الأزد يُقال له ابن الأُتبية علي الصدقة فلما قدم قال :هذا لكم وهذا أُهدي إليّ . فقال – صلي الله عليه وسلم – : " فهلاً جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر يُهدي له أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله علي رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أوشاة تيعر .. ثمّ رفع بيده حتي رأينا عفرة إبطيه : اللهم هل بلغت .. اللهم هل بلغت ..ثلاثاً "[3].

ذكرتُ في النموذجين السابقين تهذيب النبي – صلي الله عليه وسلم – لأصحابه فيما يتعلق بكبح جماح النفس عن التطلع إلي زهرة الحياة الدنيا بشره ونهم ، وعدم الإلحاف في المسألة.

(٣)البخاري في كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها – باب من لم يقبل الهدية لعلة ٥٣/٩ رقم ٢٤٠٧.

وفي هذا الحديث يتوعد النبي – صلي الله عليه وسلم – كل من يأخذ ما ليس من حقه بأنه سوف يأتي يوم القيامة وهو حامله علي رقبته .

– والحديث يذكر أن ابن الأتبية أو اللتبية – علي اختلاف في اسمه ولا مشاحة في الأسماء هنا فالمراد الحدث ذاته – كان عاملاً من عمّال النبي – صلي الله عليه وسلم – علي الصدقات ، فلما أقبل إلي المدينة ، وحاسبه النبي – صلي الله عليه وسلم – جعل الرجل يقول :هذا لكم وهذا أهدي إليّ .

– وهذا مدخل من مداخل الشيطان ، وباب من أبواب الفتنة يقع فيه كثير من الناس ، وهو اليوم قد فُتح علي مصراعيه ، حتي ولجه كثير ممن يُنتظر منهم الإصلاح والتقويم ، فيأكلون أموال الناس بالباطل متذرعين بتأويلات أوهن من نسج العنكبوت ، ويتعللون بتبريرات هم أعلم الناس أنها ليست بشيء ، فمن قائل :إنه من العاملين عليها – أي الصدقات – تلك التي تكون في المساجد لعلاج المرضي وكفالة الأيتام وغير ذلك ، ومن قائل وهو يعظ الناس

أو يحدثهم فيشير من طرف خفي إلي ضنك العيش ، والفاقة وعدم الجدة ، بل إن هناك من يطلب ذلك بلسانه مستغلاً وضعه الديني عند الناس ، ناهيك عن كثير ممن يذهب إلي قضاء شهر رمضان في دول الغرب لإرشاد الجاليات الإسلامية فتسمع ما يندي له الجبين مما يسيء إلي صورة الإسلام من ناحية، وصورة الداعية رجل الدين من ناحية أخري ، وإنا لنهيب بالأزهر الشريف ووزارة الأوقاف أن يقفا بالمرصاد لمثل هذا الخبث ، فيكون الرصد والمراقبة في الداخل والخارج ثم يكون العقاب الرادع – هذا إن كانا يريدا إصلاحاً – .

– وهذا أمر نستفيده من الحديث الذي معنا حيث محاسبة النبي – صلي الله عليه وسلم – لعماله ، فإن ولاة الأمر في كل جهة وفي كل مصلحة من أخص واجباتهم مراقبة من لهم الولاية عليهم ومحاسبتهم إذا قصروا ، وإثابتهم إذا أحسنوا ،وتنفيذ قانون "أنّي لك هذا ؟ " فإنه متي يغيب هذا القانون فلا تكاد تري إلا غنيّ فاحشاً ، وفقراً مدقعاً ، فهذا يموت بتخمته ، وذا يموت بجوعته ، علي حد قول القائل :

ما الناس إلا عاملان فعامل

.....قد مات من عطش وآخر يغرق. (١)

- إن اتخاذ المنصب - أي منصب - وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل تحت مسمى الهدية يُعدّ من باب الخيانة للأمانة بل والغلول للتشابه في الوعيد قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) وقول النبي - صلي الله عليه وسلم - في النهي عن الغلول : " لا ألفين أحدكم يوم القيامة وعلي رقبته بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أوشاة تيعر " (٣).

- أما التلاعب بالألفاظ ،وتسمية الأشياء بغير مسمياتها فهذا من قبيل الخداع والمراوغة ،لأنه لا شك في أن هذا المال رشوة وهي محرمة ، لأنه لابد فيه من أمرين :إما أن ينال به ما ليس من حقه ،وإما أن يكون المراد غض الطرف عن بعض المخالفات ، ولهذا لما أرادت ملكة سبأ أن تثنيَ من عزم سيدنا سليمان - عليه السلام - فيما أراد، أرسلت إليه بمال وأطلقت عليه اسم الهدية ،فتأبي عن قبولها وهو ما قصه القرآن الكريم بقوله : ﴿ .... وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم.... ﴾ (٤) ولولا كونه -صاحب المنصب - في منصبه ما ارتاد بيته أحد، ولا أهدي إليه شيء، ولهذا قال النبي - صلي الله عليه وسلم -" فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر يُهدي إليه أم لا؟ "

- ومما ينبغي علي الدعاة التنبه إليه :أن دعوتهم لن تجد لها آذاناً صاغية أو قلوباً واعية في دنيا الناس ما لم تنبع من قلوبهم ،فمحال أن تُزهد الناس في دنيا أنت أشد منهم رغبة فيها ،

- إن الرضا بالحياة الدنيا من الآخرة سبيل إلى التثاقل إلى الأرض والإخلاد إليها ،وكذا إيثار العاجلة على الآخرة والفانية على الباقية

ولئن كان مذموما في حق عموم الناس ، فهو في حق الدعاة أشد ذما واكبر جرما ،لأنهم بمثابة الرعاة للغنم فكيف لو تأسد هؤلاء الرعيان؟!

وكما قال القائل:

وراعي الشاة يحمى الذئب عنها

(١)هذا البيت لصالح بن عبد القدوس انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٤٢٩ .
(٢)سورة آل عمران من الآية :١٦١ .
(٣)سبق تخريجه .
(٤)سورة النمل الآيتان :٣٥، ٣٦ .

.......فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال آخر :

يا معشر القراء يا ملح البلد ......

ما يصلح الملح إذا الملح فسد . (١)

ولا أشدّ من وعيد القرآن في ذلك في قوله سبحانه :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ...﴾ (٢)

(١)انظر إحياء علوم الدين ١/١٢٣ .
(٢)سورة الأعراف الآيتان :١٧٥-١٧٦

المبحث الرابع

قبس من المنهج النبوي في التنفير من الغلو في العبادة

أرسل الله سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالحنيفية السمحة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا فلا إفراط ولا تفريط ، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٣) فالرحمة منهجه والتيسير شعاره ،ورفع الحرج ووضع الإصر من أعلام شريعته ، وهذه المعاني مبثوثة كلها في آي الذكر الحكيم وسنة البشير النذير- صلى الله عليه وسلم- .. بيد أن من النفوس نفوس تجنح إلى الإفراط في العبادة فتركب موجة الشطط والغلو تاركة- عن قصد أو عن غير قصد- العنان للنفس أن تذهب كل مذهب، ولا تزال الأمواج تتجاذبها يمنة ويسرة حتى تذهب بها بعيدا عن بَر السلامة، وعن المنهج القويم والصراط المستقيم، فإذا هي غارقة في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، وقد أراد بعض الصحابة الأخيار - رضي الله عنهم - أن يبالغوا في العبادة تقربا إلى الله تعالى

(٣)سورة البقرة من الآية: ١٤٣

وابتغاء مرضاته – من وجهة نظرهم – فخرجوا بها من اليسر إلى العسر، فكان منهج النبي – صلى الله عليه وسلم – في تقويمهم وتهذيبهم هدياً لمن يأتي بعدهم أبد الآبدين ومن النماذج على ذلك ما يلي :

١- النموذج الأول :

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم – يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا: وأين نحن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم : أما أنا فإني أصلى الليل أبدا وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: " أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء،فمن رغب عن سنتي فليس منى "(١)

– وهذا الحديث يوضح لنا مدخلاً من مداخل الشيطان، وتلبيسه على فئام

(١)البخاري في كتاب النكاح – باب الترغيب في النكاح ٤٩٣/١٥ رقم ٤٦٧٥ .

من الناس، ذلك أنهم استعصوا عليه أن يطيعوه في اتباع الشهوات، فدخل عليهم من باب الطاعات والقربات، فلا يزال يُحسّن لهم الاستزادة منها حتى يخرج بهم إلى المغالاة والإفراط، فيبتدعون في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، فيقعون بذلك بين شقي الرحى، فهم بين أمر من اثنين لا ثالث لهما :

الأول : أن يحدثوا في الدين ويستمروا على هذه العبادات- في نظرهم – لا يلوون على شيء فيحق عليهم قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(٢)

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٣)

وهذه الأعمال مردودة عليهم بالغة ما بلغت ، بل إن عليهم أوزار من اقتدى بهم في فعلهم هذا إلي يوم القيامة ، لقول النبي – صلى الله عليه وسلم -:"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"(٤)

(٢)سورة فاطر من الآية : ٨ .
(٣)سورة الكهف الآية:١٠
(٤)البخاري في كتاب الصلح – باب إذا اصطلحوا على صلح جور ٩/ ٢١٠ رقم الحديث ٢٤٩٩ . عن عائشة رضي الله عنها .

ولقوله صلى الله عليه وسلم " من سن في الإسلام سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة..." (١)

وقد وضع العلماء لقبول العمل عند الله تعالى شرطين :

أحدهما:-

- أن يكون العمل صالحاً، ولا يكون كذلك إلا إذا كان على هدى النبي- صلى الله عليه وسلم- لأن " خير الهدى هدى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"(٢)

- ثانيهما : أن يتوفر لهذا العمل الإخلاص لله تعالى فلا تشوبه شائبة رياء وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٣) ...(٤)

الثاني: أن ينكصوا على

(١)مسلم في كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ١٩٨/٥ رقم الحديث ١٦٩١ . عن المنذر بن جرير عن أبيه رضي الله عنهما .
(٢)مسلم في كتاب الجمعة – باب تخفيف الصلاة والخطبة ٣٥٩/٤ رقم الحديث ١٤٣٥ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .
(٣)سورة الكهف من الآية: ١١٠
(٤)انظر تفسير ابن كثير ١٤٦/٣

أعقابهم، ويرتدوا على أدبارهم، لطول الطريق وبعد الشقة من جهة، ولفتور النفس وملالها من جهة أخرى.

وهذا النكوص وهذا الارتداد يكون في أبشع صورة قد ترد إلى الذهن، وفى كلا الأمرين يكون الشيطان قد وصل إلى مراده وغايته من هؤلاء.

والحديث المبارك يوضح أمثلة لهذا الخروج عن دائرة الشرع وكيف عالج النبي – صلى الله عليه وسلم- ذلك:

- **فأما الأول** : فاخذ على نفسه أن يصلى الليل كله ولا يرقد أبدا، وما من شك في أن هذا العمل فوق الطاقة والوسع ، وهو ما يخالف هدى الإسلام الحنيف حيث جاء في الكتاب العزيز : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٥)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ..﴾(٦)

(٥)سورة البقرة من الآية :٢٨٦
(٦)سورة المزمل من الآية : ٢٠

ثم.. هب أن رجلاً يقوم الليل كله من الذي يسعى على معاشه ؟؟ أيقوى أن يكابد المشاق بالنهار ليكسب قوته ، ثم يكابد السهر بالليل ؟؟!

هذا ما لا يقوى عليه أحد، ولا يقول به عاقل ،

إذاً فما من سبيل لمعاشه إلا أن يتكفف الناس، ويعيش على الصدقات وهذا ما لا يرضى به الإسلام مطلقا .

ولا يخفى ما في هذا الصنيع لو ترك هكذا من شر مستطير على مجموع الأمة لتفويت مصالحها ،وجعلها عالة على الأمم .

وقد دخل النبي– صلى الله عليه وسلم– المسجد يوما فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال :" ما هذا الحبل ؟" قالوا هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت به فقال صلى الله عليه وسلم ." لا.. حلوه ليصلّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد.."[1]

وعن عائشة– رضي الله عنها– قالت :كانت عندي امرأة من بنى أسد، فدخل عليّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقال : " من هذه ؟" قلت : فلانة لا تنام الليل – تذكر من صلاتها– فقال :"مه! عليكم بما تطيقون من الأعمال فإن الله لا يمل حتى تملوا "[2] جاء في الفتح :

"قال ابن بطال :إنما يكره ذلك خشية الملال المفضي إلى ترك العبادة، وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها، والأمر بالإقبال عليها بنشاط "[3]

وأما الثاني: فقد أخذ على نفسه أن يصوم الدهر ولا يفطر أبدا..

وقد يقول الإنسان ذلك في حالة من القوة والنشاط متناسياً ما قد يطرأ عليه من ضعف ومرض وغيره، لأن دوام الحال من المحال.

وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص– رضي الله عنهما– أنه قال : دخل عليّ رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فقال "ألم أُخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ "قلت :بلي .قال :"فلا تفعل ،قم ونم ،وصم وأفطر ،فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً ،وإن لزورك عليك حقاً ،وإن لزوجك عليك حقاً،إنك عسي أن يطول

(1)رواه البخاري في كتاب الجمعة – باب ما يكره من التشديد في العبادة ٣٢٤/٤ رقم الحديث ١٠٨٢ .

(2)نفس التخريج السابق رقم الحديث ١٠٨٣.

(3)فتح الباري ١٤٠/٤، ١٤١ .

بك عُمر، وإن من حسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فإن بكل حسنة عشر أمثالها ، فذلك الدهر كله" ،قال: فشددت فشُدد عليّ. قلت فإني أطيق غير ذلك .قال : " فصم من كل جمعة ثلاثة أيام " قال :فشددت فشُدد عليّ . قلت إني أطيق غير ذلك .قال : " فصم صوم نبي الله داود" قلت : وما صوم نبي الله داود ؟ قال : " نصف الدهر "[1]

وقد جاء في بعض الروايات بيان العلة من النهي عن المغالاة في العبادة أن فيها إهداراً لحقوق كثيرين ، كحقوق الزوجة ، وحقوق الأضياف ، وحقوق الجسد ، ولو قيل :هذا حق الزوجة وحق الضيف فما بال حق الجسد ؟ لقلنا إن الجسد أمانة استودعنا الله إياها ، فلا يجوز إهماله، بل يجب تعهده بما يصلحه ويقيمه ، بما شرع الله تعالي من المباح من الطعام والشراب ، والاستشفاء والرياضة ، وغير ذلك..

وإن أمة من الأمم لا تقوم على المهازيل من الرجال، ولعلك قد فطنت الآن لماذا أفطر النبي– صلي الله عليه وسلم– يوم الفتح في رمضان ودعا إلى إظهار مواطن القوة من الجسد في الإحرام.

وأما الثالث: فهذا الذي أراد أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدا ،

وبدهى أن في هذا مخالفة لفطرة الإنسان وميوله الغريزي ، وإهدار لمتطلبات الجسد ومخالفة صريحة لسنن الأنبياء – عليهم السلام– ووأد للذرية، وإشاعة للفاحشة المترتبة على كثرة النساء

وبقائهن دون زواج وغير ذلك الكثير،وقد ابتدع الرهبانية قوم فما رعوها حق رعايتها ، فلا هم أخذوا بسنة الأنبياء ، ولا هم قدروا على كبح جماح شهواتهم ، فضاقت بطون الأديرة بأطفال السفاح خشية الافتضاح .

ولهذا فقد نهى الإسلام عن ذلك فقال صلى الله عليه وسلم :

" لا رهبانية في الإسلام "[2] ، بل ونهى حتى عن التبتل و الاختصاء[3]

ومنهج الإسلام هو الأمثل في العبادة فلا إفراط ولا تفريط فإن

(1)البخاري في كتاب الأدب – باب حق الضيف ١٠٠/١٩ رقم الحديث ٥٦٦٩ .

(2)مصنف ابن أبي شيبة في كتاب النكاح – باب في التزويج ٢٧٠/٣ .

(3)البخاري في كتاب النكاح – باب ما يكره من التبتل والاختصاء ١٠/١٦ رقم الحديث ٤٦٨٥ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

النفس إذا ستوفت حاجتها من الطعام والشراب والنوم والزوجة استقرت فنشطت في العبادة، بخلاف مكابدة الحرمان من كل ذلك مما يشتت الذهن في العبادة، حتى لتلمح ذلك في تقديم العَشاء وهو الطعام على صلاة العشاء حتى لا ينشغل المسلم عن الله بغيره ،وما في هذا على المؤمن من سبيل.

وقد جاء في مسلم عن حنظلة – رضي الله عنه – قال : لقيني أبو بكر فقال كيف أنت ياحنظلة ؟ قلت نافق حنظلة .قال : سبحان الله ! ما تقول؟! قلت : نكون عند رسول الله – صلي الله عليه وسلم – يذكرنا بالنار والجنة ، حتى كأنا رأيُ عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات ، فنسينا كثيراً ، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقي مثل هذا ، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله – صلي الله عليه وسلم – قلت نافق حنظلة يا رسول الله ، قال : " وما ذاك ؟ " قلت يا رسول الله ، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأيُ عين، فإذا خرجنا من عندك نسينا كثيراً، فقال رسول الله – صلي الله عليه وسلم – : " والذي نفسي بيده لو تدومون علي ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . ثلاث مرات "(١)

وقد أبان النبي – صلى الله عليه وسلم – عن منهجه في العبادة فقال : "..... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني "

وفى هذا ترهيب ووعيد شديد لمن تسول له نفسه الخروج عن هدى النبي – صلى الله عليه وسلم – وإن كان حسن النية

فإن العبادات توقيفية والأصل فيها العلم لا الهوى والاتباع لا الابتداع .

ويمكن للدعاة إلى الله أن يستفيدوا من هذا المنهج النبوي ما يلي:

١ – القصد في العبادة فلا إفراط ولا تفريط فكلا الأمرين مذموم .

٢ – عدم التزيد في العبادة استحساناً لأن هذا سبيل الابتداع في الدين وقد أكمل الله لنا الدين وأتمّ علينا النعمة فلا حاجة لزيادة متزيد

(١)مسلم في كتاب التوبة – باب فضل دوام الذكر . ٣٠٢/١٣ رقم الحديث ٤٩٣٧ .

قال سبحانه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. ﴾ (١)

وما ترك النبي – صلى الله عليه وسلم – شيئاً يقربنا إلى الجنة إلا ودلنا عليه ولا شيئاً يقربنا إلى النار إلا ونهانا عنه.

٣ – إن الإسلام يعمل على الموائمة بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد حتى تستقيم الحياة من جهة، وحتى يقوى الإنسان على المواصلة والمداومة من جهة أخرى، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى. (٢)

٤ – إن العلم والفقه في الدين هو السياج الواقي من الانزلاق في هُوة الغلو في العبادة ،

ولذلك قيل : إن العابد على غير علم كالسالك على غير طريق ، ولموت ألف عابد أهون على الله من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه.

٥ – سيواجه الداعية في هذه الأيام – ولاشك – بعضاً من هؤلاء المتنطعين الذين لن يتورعوا أن يسلقوه بألسنة حداد ،فليحذر أن يصطدم بهم ،بل يأخذهم بالحكمة واللين والرفق ،مخلصاً النية لله محتسباً أجره عليه سبحانه ، حتى يَرتق ما بينه وبينهم من فجوة ، ويرجع بهم – بإذن الله – إلى صراط الله المستقيم.

النموذج الثاني :

روى البخاري عن عائشة – رضي الله عنها – قالت صنع النبي – صلى الله عليه وسلم – شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – فخطب فحمد الله تعالى ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية "(٣)

وفى مسلم"…. فغضب حتى بان الغضب في وجهه ثم قال:ما بال أقوام يرغبون عما رُخص لي فيه….."(٤)ولا يخفى ما في هذا الحديث من ذم المغالاة في العبادة، إذ كيف يصنع النبي – صلى الله عليه وسلم –

(١)سورة المائدة من الآية :٣ .

(٢)اقتباس من حديث أورده الإمام البيهقي في السنن الكبري ١٨/٣ وقد ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة – مختصرة ٥٠١/٥ رقم ٢٤٨٠ .

(٣)البخاري في كتاب الأدب – باب من لم يُواجه الناس بالعتاب ٥/١٩ رقم الحديث ٥٦٣٦

(٤)مسلم في كتاب الفضائل – باب علمه – صلي الله عليه وسلم – ٣٩/١٢ رقم الحديث ٤٣٤٦

صنيعاً ثم يتركه رخصة من الله ورحمة على عباده،

ثم يُصرّ قوم على ترك هذه الرخصة، ويرغبون بأنفسهم عن هذه الرحمة؟!

والنبي- صلى الله عليه وسلم- هو أعلم الناس بربه وأتقاهم له وأخشاهم،

قال صاحب الفتح: "وقوله " فوالله إني لأعلمهم بالله....."جمع بين القوة العلمية والقوة العملية"

قال ابن بطال: كان النبي- صلى الله عليه وسلم- رفيقاً بأمته فلذلك خفف عنهم العتاب

" ما بال أقوام ...." وإنما لم يميز الذي صدر منه ذلك سترا عليه"(١)

وقال الإمام النووي في ذكره لفوائد هذا الحديث:

- فيه الحث على الاقتداء به- صلى الله عليه وسلم- والنهى عن التعمق في العبادة وذم التره عن المباح شكاً في إباحته،

وفيه الغضب عند انتهاك حرمات الشرع، وإن كان المنتهك متأولاً تأولاً باطلاً.

- وفيه حسن المعاشرة بإرسال

(١) فتح الباري ٢٨٧/١٧ رقم الحديث ٥٦٣٦ .

التعزير والإنكار في الجمع ولا يعين فاعله فيقال : ما بال أقوام....... ونحوه.

- وفيه أن القرب إلى الله تعالى سبب لزيادة العلم به وشدة خشيته (٢)

وقد توعد النبي- صلى الله عليه وسلم- أولئك المجاوزين حدودهم في العبادة بقوله "هلك المتنطعون – قالها ثلاثا"(٣)

قال النووي : أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم (٤)

وما أرى الهلاك هنا إلا للانحراف الأكيد عن هدى الإسلام الوسيط ولغلبة الانقطاع وحصول السآمة والملال للزيادة الحاصلة في العبادات.

ولأمر ما عُني النبي- صلى الله عليه وسلم- بهذه القضية المهمة - قضية القصد في العبادة- فتعددت أقواله المباركة صوناً للأمة وحفاظاً عليها ، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال صلى الله عليه وسلم :"إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه فسددوا

(٢) انظر النووي علي مسلم ٧٥/٨ رقم الحديث ٤٣٤٦ .

(٣) مسلم في كتاب العلم – باب هلك المتنطعون ١٥٤/١٣ رقم ٤٨٢٣ . عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

(٤) انظر النووي علي مسلم ٢٦/٩ رقم الحديث ٤٨٢٣ .

وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة "(١)

قال في الفتح: والمشادة: المغالبة....... والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب.

قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن

كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من المأمور، بل منع الإفراط المؤدى إلى الملال، والمبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلى الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاه الصبح في الجماعة، أو إلى أن خرج الوقت المختار، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة...

وقد يستفاد من هذا :الإشارة إلى الأخذ بالرخصة الشرعية فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة تنطُّع كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء فيفضى به استعماله إلى حصول

(١) البخاري في كتاب الإيمان – باب الدين يسر ٦٩/١ رقم ٣٨ .

الضرر (٢)

ولا يزال العبد يتتره عن الرخص المشروعة حتى يخرج بالإسلام من اليسر إلى العسر ومن السعة إلى الضيق ويقع في الحرج الشديد

والله سبحانه ما أراد هذا ولا يأمر به فهو القائل :﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٣)

وقال ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٤)

ولأمر ما وجدنا الله تعالى يأمر نبيه- صلي الله عليه وسلم - والمؤمنين معه وبه إلى يوم القيامة بهذا الأمر العجيب:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٥)

والاستقامة معروفة إذ تعنى ببساطة المضي على الطريق دون انحراف حتى الوصول إلى الغاية والنهاية.

ولا مشاحة ولا عجب في الأمر بها إنما العجب أن يعقب الأمر بها النهى عن الطغيان وهو مجاوزة الحد.

(٢) انظر فتح الباري ٦٢/١ رقم الحديث ٣٨ .

(٣) سورة البقرة من الآية :١٨٥

(٤) سورة المائدة من الآية :٦ .

(٥) سورة هود من الآية :١١٢ .

ولأترك الكلام هنا لصاحب الظلال – طيب الله ثراه – بحسه المرهف وذوقه الأدبي الرفيع فيقول

" وإنه لمما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهياً عن القصور والتقصير إنما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة، وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر ، دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير،

وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط بلا انحراف إلي الغلو أو الإهمال على السواء"(١)

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٣١/٤ .تفسير سورة هود الآية ١١٢ .

خاتمة البحث

الحمد لله منزل الكتاب، مجرى السحاب وهازم الأحزاب ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد الذي أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله الطيبين وكل الأصحاب وبعد:

فمن فضل الله وتوفيقه أن يسّر لي كتابة هذا البحث

وفي خاتمته أحب الإشارة إلى أهم نتائجه :

أولا :

- إن الصحابة– رضي الله عنهم جميعا– هم خير هذه الأمة بعد نبيها– صلى الله عليه وسلم– ومع ذلك فلا يدّعى أحد عصمتهم، وما وقع من بعضهم من هنات أو أخطاء إنما هي أقدار أجراها الله على أيديهم ليتنزل الوحي الإلهي بتصويبها وأحكامها ، وليعمل النبي– صلى الله عليه وسلم– على تهذيبهم وإرشادهم ، تشريعاً لباقي مجموع الأمة إلى أبد الآبدين،

وقد تابوا إلى الله وأنابوا وقبِلَ منهم ربهم ذلك، وعدالتهم وفضلهم منشورة في القرآن وصحيح السنة المطهرة .

ثانيا :

- إن على الدعاة إلى الله في كل عصر إذا أرادوا لدعوتهم استمرارا ونجاحا، فما عليهم إلا أن يفقهوا عن رسولهم وقدوتهم وإمامهم في الدعوة سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقوموا اعوجاج المعوج وما يتناسب مع حالته وظروفه ، ويخاطبوا الناس على قدر عقولهم ،

ويزاوجوا في دعوتهم ما بين الترغيب والترهيب ، والرفق والشدة بحسب مقتضى الحال ،

ثالثا :

– على الدعاة اليوم وهم يواجهون صنفين من الناس: صنف فرّط في جنب الله تعالى وأسرف على نفسه بالمعاصي ، وصنف شدّد على نفسه في العبادة حتى خرج بالإسلام من اليسر إلى العسر ،

أقول على الدعاة : أن يعملوا على إبراز صورة الإسلام الحقيقية للعالم كله وأنه دين يقوم على الوسطية واليسر والقصد في كل شيء ، فلا إفراط ولا تفريط .

وأنه لا يُحكَم على الإسلام بسلوك بعض المنتسبين إليه وإنما من خلال منابعه الأصيلة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والله من وراء القصد وهو حسبي ونعم الوكيل......

د/ حسين حامد

ثبت بأهم مراجع البحث

القرآن الكريم جلّ من أنزله .

١ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالي - دار المنار .

٢- أدب الدنيا والدين للإمام الماوردي

٣- تاج العروس للإمام الزبيدي - دار مكتبة الحياة - بيروت ١٣٠٦ هجرية .

٤- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير - ط الريّان - الأولي - ١٩٩٦ .

٥- تهذيب الكمال للإمام المزي .

٦- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي - دار الكتاب العربي - ١٣٨٧ هجرية .

٨- زاد المعاد للإمام ابن القيم - المطبعة القيمة .

٨- سنن ابن حبان .

٩- سنن ابن ماجه - ط دار الفكر .

١٠- سنن أبي داود - ط دار الحديث .

١١- سنن الترمذي - ط- دار الفكر .

١٢- شرح النووي علي مسلم للإمام النووي .

١٣- صحيح الإمام البخاري .

١٤- صحيح الإمام مسلم .

١٥- العواصم من القواصم للإمام ابن العربي - مكتبة السنة .

١٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني .

١٧- فقه السنة للشيخ البوطي - ط- دار السلام .

١٨- في ظلال القرآن للأستاذ/ سيد قطب -دار الشروق ط-٣١- ٢٠٠٢م.

١٩- لسان العرب للعلامة ابن منظور - دار لسان العرب - بيروت

٢٠- مختار الصحاح للعلامة أبي بكر الرازي - مطبعة الأميرية - ط- ٨ - ١٩١٩ م .

٢١- المدخل إلي علم الدعوة للشيخ / أبي الفتح البيانوني - مؤسسة الرسالة - ط - ٣ - ٢٠٠١م

٢٢- المسند للإمام أحمد بن حنبل - دار المعارف مصر ١٩٦٤ م .تحقيق الشيخ/ أحمد شاكر.

٢٣- المفردات في غريب القرآن للعلامة الأصفهاني - مطبعة الأنجلو ١٩٧٠ م .

٢٤- مشكاة المصابيح للشيخ/ الألباني.

٢٥- معجم ألفاظ القرآن الكريم - مجمع اللغة العربية - ط ٢ - ١٩٧٠م.

٢٦ - منهج الدعوة إلي الله تعالي في ضوء سورة النمل - رسالة دكتوراه للباحث .